

المصطلح البلاغي .. رحلة النشأة والتكوين

أ.م.د / هناء عبد الرضا رحيم الربيعي

جمهورية العراق / جامعة البصرة - كلية التربية - قسم اللغة العربية

تقديم:

يشكّل المصطلح في أيّ علم علامة دالة على مراحل تطوّر هذا العلم وصولاً إلى تكوّنه بشكله النهائي؛ إذ يكشف لنا في كلّ مرحلة زمنية مرّ بها عن التطوّر في المفاهيم التي تضمّنها، ممّا قد يكون مادّة ثريّة للباحثين لتعليل ماهيّة هذا التطوّر، أو تفسيره، أو تسجيل السبق والريادة فيه للعلماء من حيث إطلاق تسمية المصطلح، أو تحديد مفهومه، وصولاً إلى ترابط لبنات العلم ومن ثمّ اكتماله كلاً متكاملاً، ويرى بعض العلماء أنّ المصطلحات الخاصّة بأيّ علم إنّما هي (مفاتيح العلوم)¹ التي يمكن من خلالها فكّ المقفل من مباحثها، وهو محقّ في ذلك.

وفيما يخصّ علم البلاغة فإنّه مرّ بمثل ما مرّت به علوم العربيّة من نشوء ونموّ في مفاهيمه ومصطلحاته، ومن ثمّ تطوّر واكتمال، وإذا ما استقرينا الدراسات التي تعرّضت لواقع المصطلحات البلاغيّة التراثيّة ونظرنا إليها نظرة دقيقة فاحصة نجد أنّ الكثير من هذه الدراسات نسبت اللبس وعدم الوضوح إلى هذه المصطلحات، إذ لم تأخذ بنظر الاعتبار مهمّة دراستها في ضوء الأسس

¹ (ظ: الخوارزمي: مفاتيح العلوم: 5.

النظرية التي اقتضتها في جانبها المفهومي فأوحى ذلك بالتعقيد في غالب الأحوال⁽¹⁾، فضلاً عن أنّ أغلب هذه الدراسات لم تضع المصطلحات البلاغية ضمن المؤسسة المعرفية والثقافية التي نشأت فيها، فالكثير منها نشأ وترعرع في ظل بيئات ثقافية مختلفة أسهمت إلى حدّ كبير في ارتقاء مفهومه وتطوّره.

ومن داخل هذه البيئات المتعدّدة انبثقت مجموعة من الأسباب الداعمة لنشوء المصطلحات البلاغية، من هذه الأسباب:

- مسألة التعاشق الوظيفي الذي نشأت البلاغة على أساسه، إذ لم تكن نشأتها نشأة صافية ونقيّة إلى حدّ كبير فالأعمدة التي قامت عليها ونشأت منها تعود إلى علوم مختلفة، منها: المنطق، والفلسفة، وعلم الكلام، والنقد؛ لذا كان من الطبيعي أن تتسرّب المصطلحات الخاصّة بهذه العلوم إلى ميدان علم البلاغة، وقد أخذت هذه المصطلحات مداها الزمني لتتخلّص من بعض مفاهيمها التي ارتبطت بها في علومها الأصلية ولتشكّل لها مفاهيمها الخاصّة في ضوء مقومات الدرس البلاغيّ وأهدافه.

- ظهور الكثير من القضايا الداعمة لنشأة المصطلح وارتباطه بمفهومه، فالميل إلى التحديد والضبط كان سمة مهمّة وسمت الدرس اللغويّ في العربية عامّة، ومن هذه القضايا التي أسهمت في نموّ مفصلات الدرس البلاغيّ قضية اللفظ والمعنى، وارتباط الدالّ بالمدلول، أو الاسم بالمسمّى، ((ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إنّ التراث البلاغيّ هو الذي استقطب واحتضن هذه القضية بشكل جليّ، وربّما هذا ما يدفعنا إلى الولوج إلى قضية أخرى يمكن عدّها رحم القضية الأولى وهي قضية الإعجاز اللغويّ، بل هي السبب الرئيس - إن صحّ التعبير - لوجود إشكالية اللفظ والمعنى))⁽²⁾.

¹ (ظ: عبد الحليم بن عيسى، المصطلح التراثي في الدرس اللساني الحديث، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية، ع5، ماي 2005: 88، 89.

² (صلاح الدين ززال: الظاهرة الدلالية: 66، 67.

- نزوع العلماء إلى الابتكار والتجديد منطلقين من أن البلاغة علم ناشئ لا زال في بداية نموه - في تلك الفترة- مما ساعد على ظهور الكثير من المفاهيم التي قد ينفرد بها عالم من دون آخر، وقد يربطها آخر بتسمية أو لا يربطها، وقد يستدلّ عليها بأمثلة أو لا، وصولاً إلى تكامل المفاهيم مع مصطلحاتها الدالة عليها، فالعمل الذي طُبعت عليه البلاغة هو عمل جماعيّ تكاتف العلماء فيما بينهم على إيجاده ومن ثمّ تشذيبه وصولاً إلى شكله النهائيّ.

- اختلاف العلماء فيما بينهم على أساس المذهب والعقيدة وإن كان هدفهم الأساس من خوض ميدان البلاغة الدفاع عن الدين الإسلامي وكتابه المقدّس ولا سيّما في حديثهم عن قضية الإعجاز القرآنيّ، وما جرّه هذا الاختلاف من تحديد مفاهيم بعض المصطلحات وتسمياتها على وفق توجّههم العقديّ، هذا الأمر أسهم إلى حدّ كبير في ظهور موجة نموّ سريعة أثّرت على ميادين علم البلاغة بما أوجدته فيها من كمّ المفاهيم والمصطلحات التي لم تكن موجودة فيها أصلاً فأسهمت في توسيع حدودها ونموّ مباحثها.

- قضية التأثير والتأثير بين اللغات المختلفة، فاللغة العربيّة لها خصوصيّاتها الصوتيّة والتركيبية والدلاليّة، ولها مقاييسها التي تضبط حدودها وتحدها، وهي تختلف في ذلك عن اللغات الأخرى؛ لذا فإنّ قضية التأثير بين اللغات المختلفة ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار وتوضع على طاولة البحث العميق، وهو أمر ينسحب على الموقف من المصطلحات في الوقت الحاضر أيضاً، فالتراث البلاغيّ جدير بالبحث والمناقشة ومليء بالمصطلحات التي عبّرت عن الظواهر البلاغيّة أكمل تعبير- في ضوء الفترة التي ظهرت فيها- وتمثّل مرحلة اللجوء إلى المصطلحات غير العربيّة بديلاً مؤقتاً فرضته الحاجة الطارئة للتطوّرات الجديدة؛ لذا كان البحث في موضوع المصطلحات حاجة ملحة دعت إليه الظروف المستجدة في كلّ زمان.

من هذه المنطلقات وغيرها كان بحثنا عن المصطلح البلاغيّ في ضوء الأسباب الداعمة لنشأته ومن ثمّ تطوّره واكتماله مفهوماً ثابتاً له مقاييسه التي تحدّه، فالتجديد في أي درس ينبغي أن ينطلق من التراث ذاته، ومحاولة إعادة تقويم هذا التراث ينبغي أن تتمّ في ضوء المؤسسة المعرفيّة التي

ولد فيها وتربى، فالمصطلح البلاغيّ عملت فيه عوامل كثيرة منها ما هو وافد على البيئة العربيّة نتيجة الاحتكاك والتداخل مع اللغات الأخرى، ومنها ما هو ناتج عن البيئة اللغويّة ذاتها، هذه فكرة البحث وأرجو من الله سبحانه أن يوفّقني لتقديم نظرة تقويمية جديدة للمصطلح البلاغيّ من جهة، وللبلّغيين الذين أنتجوه من جهة أخرى، وأن تكون هذه الدراسة محاولة للوقوف على مراحل تطوّر الدرس البلاغيّ في البيئة العربيّة وصولاً إلى استقراره.

- المصطلح البلاغيّ في ظلّ ظروف النشأة:

لتقييم النظرة إلى المصطلح البلاغيّ ينبغي أن ننطلق من الأصول التي نشأت بين أحضانها هذه المصطلحات، ومثلما ذكرنا سابقاً فإنّ البلاغة العربيّة لم تكن صافية النشأة، إذ اختلطت مباحثها وتمازجت مع باقي علوم العربيّة إلى أن استقرّت شيئاً فشيئاً علماً له حدوده ومصطلحاته الخاصّة به، من هذا المنطلق أخذت المصطلحات - البلاغيّة - في نشأتها ثلاثة أبعاد حدّت هذه النشأة، هي:

- أولاً: النشأة العامّة.
- ثانياً: النشأة المختلطة.
- ثالثاً: النشأة الخاصّة.

وسنستعرض هذه الأبعاد الثلاث مع الاستدلال عليها بما نراه مناسباً للتعبير عن نشأة المصطلح البلاغيّ على وفق ما استوجبه كلّ بعد.

- أولاً: النشأة العامّة:

ويختصّ هذا البعد بالبحث عن المصطلحات التي كانت نشأتها عامّة في اللغة العربيّة من دون تحديد أو تخصيص بعلم معيّن من العلوم، ومن ثمّ انتقل هذا المصطلح إلى مباحث علم البلاغة بوصفها واحداً من علوم العربيّة؛ لذا فإنّ مسألة وجود المصطلح بين جنبات هذا العلم أمر طبيعيّ، إذ كانت دلالة هذه المصطلحات عامّة في أوّل أمرها ثمّ استقلّت فيما بعد لتصبح مختصّة بعلم

جديد قائم بذاته، وبمرور الوقت تخلص المصطلح من شوائب الدلالة العامة ليصبح مختصاً بظاهرة بلاغية معينة، أو قيمة دلالية خاصة به في ضوء المدلول البلاغي، وكثيرة هي المصطلحات التي اتصفت بهذه الصفة، ومنها:

1- مصطلح (الالتفات):

إن أقدم الإشارات إلى هذا المصطلح تعود إلى اللغويين، إذ تنقل لنا كتب التراث أن الأصمعي سأل أبا اسحق الموصلي عن التفاتات الشاعر جرير، وإنشاده لقوله:

أتنسى إذ تودّعنا سليمي ** يعود بشامة سقي الغمام

وعندما لم يجبه أبو اسحق بين له الأصمعي المراد من الالتفات بقوله: ((أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام، فدعا له))⁽¹⁾. وهذه الرواية تشير إلى أن القدماء عرفوا المصطلح وفهموه على أنه التحول في الكلام من معنى إلى آخر، وهو مفهوم تداولته بعض الكتب البلاغية تحت مصطلح (الاستطراد) قبل أن يتطور إلى التحول في الأسلوب، المفهوم الذي استقر عليه فيما بعد عند البلاغيين.

وظاهرة (الالتفات) بحد ذاتها عُرِفَت في حقبة زمنية مبكرة ولكنّها لم تكن مستقلة بذاتها، وإنّما مندرجة تحت مصطلح (المجاز) الذي يعني الاتساع في اللغة تارة، أو غير مرتبطة بمصطلح محدّد تارة أخرى، ولكنّها شهدت أوّل التقاء لها بالمصطلح البلاغيّ على يد ابن المعتز في كتابه (البيدع) إذ أدخلها ضمن محاسن الكلام، وشكّل (الالتفات) فيها أوّل تلك المحاسن، وعرفه بأنّه: ((انصراف المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر))⁽²⁾، وعلى وفق هذا المفهوم استقرّت دلالة مصطلح (الالتفات) في كتب البلاغيين، فمثلاً بدأ مفهومه - عند القدماء - في فترة زمنية

¹ (العمدة: 381/1، كتاب الصناعتين: 407.

² (البيدع: 58 .

متقدّمة كذلك استقرّ مفهومه الاصطلاحيّ البلاغيّ في فترة متقدّمة أيضاً، إذ لم تستغرق عمليّة ارتباط المفهوم بالمصطلح فترة زمنيّة طويلة.

2- مصطلح (البلاغة):

دلّ مصطلح (البلاغة) في معناه اللغويّ على الانتهاء والوصول، يقال: بلغ الشيء يبلغ بلوغاً: وصل وانتهى، وتبلّغ بالشيء : وصل إلى مراده⁽¹⁾، وقد نقل لنا التراث الكثير من الآراء التي عبّرت عن المعنى اللغويّ للبلاغة، فربطها بعضهم بما تجيش به النفس من الأحاسيس، وربطها بعضهم بالإيجاز، وربطها آخرون بعدم الوقوع في الخطأ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ خير من نقل لنا هذه الآراء التي لم تستقرّ على مفهوم واحد يتفق عليه العلماء وإنّما كان مفهوم البلاغة يبنى فيها على انطباعات نفسية يعبر بها كلّ شخص عن توجّهاته، إلا أنّ المفهوم الذي غلب على المصطلح هو الوصول والانتهاء، وهو المفهوم الذي دخل إلى علم البلاغة قبل أن يستقرّ على ما استقرّ عليه فيما بعد، فالجاحظ عبّر عن البلاغة بقوله: ((لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتّى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك اسبق من معناه إلى قلبك))⁽²⁾، وهي عند أبي هلال العسكري: ((البلاغة كلّ ما تبلغ به قلب السامع فتتمكّنه في نفسه كتتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن))⁽³⁾، فأضاف الجاحظ وأبو هلال العسكريّ إلى مفهوم الإيصال المجرّد للبلاغة الصورة الجميلة المؤثّرة في النفس التي تصل إلى القلب وتحدث تأثيرها فيه، في حين أضاف الرازي إلى هذا المفهوم مساواة حاجات المقام الذي يتطلّبها، إذ قال معرّفًا البلاغة بأنّها: ((بلوغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخلّ والإطالة المملّة))⁽⁴⁾.

¹ (ظ: لسان العرب، مادة (بلغ): 1/ 345.

² (البيان والتبيين: 1/ 115.

³ (كتاب الصناعتين: 12.

⁴ (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: 40.

ولم تستقرّ معالم البلاغة إلا على يد السكاكيّ إذ أصبحت تدلّ على ((بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواصّ التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والجاز والكناية على وجهها))⁽¹⁾، فقسّم السكاكيّ بموجب هذا التعريف البلاغة إلى علميّ (المعاني) و(البيان)، وأخرج مباحث علم (البدیع) منها؛ لأنّه يتعلّق بتحسين الكلام- من وجهة نظره- فهو ليس من البلاغة بشيء.

وانتهت البلاغة كمصطلح مستقرّ على يد القزوينيّ الذي أكمل ما بدأه السكاكيّ فعرفّها بأنّها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته⁽²⁾، وقسّمها على ثلاثة علوم: ما يُحترز به عن الخطأ وهو علم المعانيّ، وما يُحترز به عن التعقيد المعنوي وهو علم البيان، وما يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته وهو علم البديع، ولم يخرج من جاء بعد القزوينيّ عن هذا التقسيم أو هذا المفهوم الذي استقرّ عند هذا الحدّ.

ورحلة مصطلح (البلاغة)- مثلما لاحظنا- من ميدان المفهوم العامّ الذي اتّفق عليه أصحاب المعاجم، إلى ارتباط مفهومه بالكلام الفنّي الذي يأخذ بمسامع المتلقّي، ومن ثمّ ارتباطه بالصورة المؤثّرة بالنفس وعلى وفق مقتضيات مقام الكلام، وصولاً إلى تكامل تقسيمه إلى علومه الثلاث، إنّما كانت رحلة تدريجيّة أتاحتها له ظروف نشأته على وفق التطوّر الحاصل في مفردات مباحثها، إذ تعدّ البلاغة المستوى الراقى للغة العربيّة بعد استحصال درجة الصحّة والسلامة في تراكيبه.

3- مصطلح (البيان):

ومثل مصطلح البلاغة مصطلح (البيان) الذي دلّ في معناه اللغويّ على البيان والظهور، فالبيان لغة ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء اتّضح فهو بيّن، واستبان الشيء

¹ (مفتاح العلوم: 526.

² (ظ: الإيضاح: 80/1، التلخيص: 33، 34.

ظهر، والبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور⁽¹⁾.

وكلمة (البيان) ظلت تحمل هذه المعاني العامة التي يجمعها مفهوم الوضوح والبيان حتى دخولها في الدراسات البلاغية، إذ أصبح لها مدلول آخر ارتبط بأساليب التعبير عن مفهوم الكلام الذي يأخذ أكثر من شكل، وهذا الأمر يبدو واضحاً عند الجاحظ الذي تحدّث عنه قائلاً: ((اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل))⁽²⁾، وأخذ البيان عنده أشكالاً مختلفة، من: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والنسبة، وتابعه ابن وهب، والرماني في تقسيمهما البيان⁽³⁾.

ويأخذ المصطلح بعداً آخر عند ابن رشيق القيرواني وعبد القاهر الجرجاني إذ عدّاه بديلاً مساوياً للفصاحة مع محافظته على دلالة الوضوح والكشف، ومع ذلك فقد بحث الجرجاني فنون البيان وتوسّع فيها⁽⁴⁾.

ويصل المصطلح إلى السكاكي فيتحدّد معناه بـ ((معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالتقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه))⁽⁵⁾، ويتابعه القزويني في بيان مفهومه، ويعرفه بأنّه ((علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه))⁽⁶⁾، ليتحدّد مفهوم (البيان) بما يشتمل

¹ (ظ: لسان العرب، مادة (بين): 403/1.

² (البيان والتبيين: 76 / 1.

³ (ظ: البيان والتبيين: 76 / 1 ، البرهان في وجوه البيان: 60 ، النكت في إعجاز القرآن: 106 .

⁴ (ظ: العمدة: 257 / 1 ، 258 ، دلائل الإعجاز: 43.

⁵ (مفاتيح العلوم: 249.

⁶ (الإيضاح: 326 / 2 ، التلخيص: 235 ، 236.

على فنونه التي تسهم في إيراد المعنى بطرق مختلفة، من: التشبيه، والاستعارة، والمجاز والكناية، وليستقر المصطلح عند هذا الحد.

وهنا نلاحظ أنّ مفهوم (البيان) وإن كانت دلالة عامة في بداية نشأته إلا أنّ الملاحظات الدالة على الفنون التي ارتبطت به فيما بعد من تشبيه، واستعارة، وكناية كانت مبثوثة في تضاعيف الدراسات البلاغية، وقد توسّع الجرجاني في الحديث عنها والاستدلال عليها بالشواهد القرآنية والأمثلة⁽¹⁾، ولكن ارتباطها بالمصطلح تمّ بعد ذلك على يد السكاكي.

4- مصطلح (الفصاحة):

الفصاحة لغة تعني البيان والظهور، يقال: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح أي يبين⁽²⁾، وعلى وفق هذا المعنى استعمل العلماء مصطلح (الفصاحة)، وهو قريب من معنى البلاغة التي تعني الإبانة عن المعنى وإظهاره، وعلى هذا الأساس لم يفرّق أغلب البلاغيين بينهما في كتبهم فدلالة أحدهما تدلّ على الأخرى، مثلما هو الأمر عند عبد القاهر الجرجاني⁽³⁾.

وقد حاول بعض البلاغيين إيجاد الفروق بين المصطلحين، فبعضهم ذهب إلى أنّ الفصاحة في اللفظة تكمن في كثرة استعمال العرب لها، وجريانها على ألسنتهم أيّاً كانت صفتها، ودرجة انسجام حروفها وتوافقها، وبعضهم ذهب إلى أنّ الفصاحة تتعلّق باللفظ أمّا البلاغة فتتعلّق بالمعنى⁽⁴⁾، وقد توسّع ابن سنان في بحث (الفصاحة) وشروطها، مفرّقاً بين الفصاحة الواقعة في اللفظ، والواقعة في التركيب، فمن شروط فصاحة اللفظ: خلوّها من التقارب الشديد في مخارج

¹ (ظ: دلائل الإعجاز: 66 ، أسرار البلاغة: 27 وما بعدها، 90 وما بعدها.

² (ظ: لسان العرب، مادة (فصح): 1/ 3419.

³ (ظ: دلائل الإعجاز: 43.

⁴ (ظ: على سبيل المثال: سرّ الفصاحة: 49.

الحروف، ومن الاضطراب وعدم التآلف في ترتيبها، وفي موافقتها للمعنى المراد التعبير عنه، وجريانها على قوانين اللغة في التصريف والجموع والاشتقاق، وعدم خروجها على المألوف من الصيغ العربية لكونه أعجمياً لم يأخذ الشكل الذي ترتضيه العربية في صيغها، وملاءمته لنمط العربية في الميل إلى قلة الحروف، وأن يكون فوق هذا كله ملائماً للموقف الذي يعبر عنه، ولا يحمل إيحاءاً لا ترتضيه النفس، أو يكون قد استعمل في مثل هذا المعنى⁽¹⁾، أمّا الفصاحة في التراكيب فتتضمن: خلوه من التنافر بين الكلمات، وابتعاده عن ضعف التركيب، وخلوه من التعقيد اللفظي والمعنوي⁽²⁾.

- ثانياً: النشأة المختلطة:

يختص هذا البعد بالبحث عن المصطلحات التي نشأت أصلاً في أحضان علوم أخرى، وبحكم التأثير فقد اكتسبت مباحث البلاغة بعضاً من تقسيمات هذه العلوم مع مصطلحاتها الدالة عليها، ولو نظرنا إلى كمّ المصطلحات التي أفادتها البلاغة من العلوم الأخرى المندرجة في ميدان اللغة العربية لوجدنا أنها تمثل كمّاً لا يُستهان به، فالبلاغة تمثل خلاصة ما توصلت إليه علوم العربية من تطوّر، ومن ضمن العلوم التي استوحت البلاغة مصطلحاتها منها: علم المنطق، علم الكلام، علم الأصول، علم العروض، علم النحو، علم النقد، وسنستعرض بعضاً من هذه المصطلحات ضمن علومها التي وردت فيها.

أ- مصطلحات علم المنطق:

يبدو تمازج موضوعات علم المنطق والدرس البلاغي بشكل واضح في التعريفات والحدود والرسوم الميثوقة في مباحثهما، والخلاف حول استيفاء تعريفاتها شروط الحدّ الصحيح أو لا، فلا تكاد تقع عينك على باب من أبواب البلاغة العربية حتّى تلقاك الخصومات حول تعريفه أو

¹ (ظ: سرّ الفصاحة: 54 وما بعدها.

² (ظ: سرّ الفصاحة: 82 وما بعدها.

تقسيمه أو تحديده⁽¹⁾، وهذا الأمر لا يقتصر على التقسيمات الرئيسة لمباحث هذا العلم بل يشمل التقسيمات الفرعية للفنون والأغراض المرادة منها، وهو أمر طبيعي إذا ما قسنا الأمر من منطلق علمي؛ فعلم المنطق هو القاعدة التي يستقي منها العلماء أصول علومهم وأسسها، والبلاغة واحدة من هذه العلوم، ولكنها تختصّ بميزات تميزها عن بقية علوم اللغة؛ إذ تعتمد المعنى وتركز على دقائق التعبير الفنيّ ممّا أتاح لها هذه الكثرة الكثيرة من التقسيمات والتفريعات والمصطلحات الدالة على كلّ منهما.

إلى جانب الإفادة التي تحققت للبلاغة من خلال التقسيمات المنطقية والحدود والرسوم فقد أفادت البلاغة من بعض المصطلحات التي أختصّ بها علم المنطق، ومن هذه المصطلحات:

1- مصطلح (التصور) و(التصديق):

التصور في علم المنطق يعني حضور صور الأشياء في العقل من خلال: اللفظ، أو التركيب فهو تصوّر مجرد لا يستتبع جزءاً أو اعتقاداً، أمّا التصديق فهو صورة المطابقة للواقع المستلزمة لحكم النفس وإدعائها وتصديقها بالمطابقة، والتصور أقرب ما يكون إلى (قواعد التعريف) في المنطق، أمّا التصديق فهو أقرب ما يكون إلى (قواعد الاستدلال)⁽²⁾.

انتقل هذان المصطلحان إلى علم البلاغة ليصبحان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بمبحث الاستفهام؛ لأنّ مبحث التصوّر أو التصديق هو استفهام ناشئ في العقل يتطلّب سؤالاً عقلياً أيضاً، ليصبح التصوّر في البلاغة إدراك مفرد وتعيينه بذاته في جواب الاستفهام، أمّا التصديق فقد أصبح يدلّ على إدراك نسبة بين أمرين يكون الجواب عليهما بنعم أو لا، (نعم) في حالة الإيجاب، و(لا) في حالة السلب، فالتصديق يعني إثبات نسبة أحد أمرين وترجيحه على آخر، يقول السكاكي: ((والاستفهام لطلب حصوله في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إمّا أن يكون حكماً بشيء

¹ (ظ: د. السيّد أحمد خليل: المدخل إلى دراسة البلاغة: 4.

² (ظ: محمد رضا المظفر: المنطق: 1/ 24، 25.

على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصوّر الطرفين، والثاني هو التصوّر ولا يمتنع انفكاكه من التصديق⁽¹⁾، ومع أنّ المصطلحين في علم المنطق وما أصبحا عليه في علم البلاغة يختلفان إلا أنّهما حافظا على الإيجاء المنطقيّ في دالتهما.

2- مصطلح (الدلالة) أو (الدالّ) و(المدلول):

ولدت هذه المصطلحات في أحضان مباحث علم المنطق، قال الشريف الجرجاني: ((الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدالّ، والثاني هو المدلول⁽²⁾))، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى في اصطلاح علماء المنطق تنحصر في عدّة أقسام، منها: عبارة النصّ، وإشارة النصّ، ودلالة النصّ أي الحكم اللغويّ المستفاد منه، واقتضاء النصّ أي الحكم الشرعيّ المستفاد منه⁽³⁾.

هذه التقسيمات للدلالة نجدها واضحة عند الجاحظ في حديثه عنها من منطلق توجهه الاعتزاليّ، وبشكل قريب من هذا التقسيم، إذ قال: ((وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال التي تسمّى نصبة⁽⁴⁾))، وتابعه ابن وهب في تقسيمه هذا عند حديثه عن وجوه البيان⁽⁵⁾.

وتقسيم (الدلالة) عند المناطقة يأخذ شكلاً ثلاثيّاً يتضمّن:

- الدلالة العقلية.

¹ (مفتاح العلوم: 415.

² (التعريفات: 93.

³ (ظ: المصدر السابق نفسه.

⁴ (البيان والتبيين: 1/ 76.

⁵ (ظ: البرهان في وجوه البيان: 60.

- الدلالة الطبيعية.
- الدلالة الوضعية¹).

هذه المصطلحات الدالة على أشكال مختلفة من (الدلالة) دخلت إلى علم البلاغة من منطلق التأثير الحاصل بينها وبين علم المنطق، ومع تشذيب بعض مفاهيمها أصبحت متلائمة مع خصوصية البلاغة، فيما أن البلاغة تمثل فن القول فقد تحدت الدلالة فيها بما تعلق بنطق اللسان للألفاظ التي تحققت فيها الفصاحة، فأقصت البلاغة متعلقات الدلالة المنطقية من مباحثها، واقتصرت في تقسيمات الدلالة على الدلالة الوضعية والدلالة العقلية، وعموجها تم تقسيم متعلقات علومها، فالدلالة الوضعية تتحقق في مباحث علم المعاني، والدلالة العقلية تتحقق في مباحث علم البيان، أما علم البديع فهو قسيم الدالتين.

3- مصطلح (المقام) و(مناسبة الأحوال):

وتمثل هذه الفكرة مدار الإقناع في كتاب (الخطابة) لأرسطو، فينبغي أن ينظر المتكلم إلى مقامات المخاطبين كي يستطيع إقناعهم على حسب المستوى العقلي الذي يتمتعون به، وهي الفكرة نفسها التي انتقلت إلى مباحث البلاغيين من خلال الآراء التي بثها المعتزلة بخصوص البلاغة مع ما امتازوا به من ثقافة منطقية، وصحيفة بشر بن المعتز خير دليل على ذلك.

وفكرة مراعاة المقام أو مناسبة الأحوال تقوم على أن للكلام خصوصيات مختلفة ينبغي على المتكلم ملاحظتها كي يستطيع أن يورد كلامه على وفق صورة خاصة تشاكل غرضه الذي أورد الكلام فيه، فعليه أن يأخذ بنظر الاعتبار المقام الذي استوجب الكلام، والحال

¹ (ظ: المنطق: 43، 44).

التي أحاطت به⁽¹⁾، هذا المفهوم طرحه البلاغيون بعد أن أفادوا من الفكرة الرئيسة للموضوع من مباحث علم المنطق.

ب- مصطلحات علم الكلام:

إن تأسيس البلاغة بوصفها علماً من العلوم العربية الإسلامية إنما يرجع الفضل فيه إلى المتكلمين الأوائل - خاصة المعتزلة- إذ كان عليهم أن يواجهوا خصوماً من الزنادقة والشعوبيين الذين ركّزوا على إنكار قضية الإعجاز القرآني، ومن هنا تصدّى البلاغيون الأوائل للكشف عن فكرة الإعجاز، وتحديد السرّ فيه⁽²⁾، ولقد أثار المتكلمون من خلال طبيعة عملهم في استنباط أصول العقيدة وتحديد معالمها عدّة قضايا موصولة باللغة، اعتمدت بالدرجة الأساس ناحية الدلالة وتطوّرها وحدود المعاني والكشف عن أطرافها وهي نتيجة طبيعية لماهية عملهم⁽³⁾، مثل قضية (الإعجاز) البياني التي عاشت حياتها الأولى بين أحضانهم، وقضية اللفظ والمعنى التي ناقشوا من خلالها مشكلة خلق القرآن⁽⁴⁾، وقد نشأت عدّة مصطلحات في بيئة المتكلمين وأفادت منها البلاغة في مباحثها، منها:

1- مصطلح (أسلوب الحكيم):

وهو تلقّي المخاطب بغير ما يترقّب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنّه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلّب بتزليل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنّه الأولى بحاله أو

¹ (ظ: د. أنعام فوّال عكاوي: المعجم المفصّل في علوم البلاغة: 657.

² (ظ: د. محمد عابد الجابري: التراث والحدائق: 51.

³ (ظ: المدخل إلى دراسة البلاغة العربية: 103.

⁴ (ظ: المصدر السابق نفسه.

المهمّ له ⁽¹⁾، وقد أَسَمَاهُ الجاحظ (اللغز والجواب)، أمّا عبد القاهر الجرجانيّ فأَسَمَاهُ بـ(المغالطة).

وهذا الفنّ في أصله ينتمي إلى مصطلحات علماء الكلام لأنّه يتطلّب فطنة وذكاء وسرعة بديهية، والأصل في استعماله عند المتكلّمين إنّما هو إقام الحجّة على الخصم وتنبيهه على أنّ هناك أموراً أولى من الأمور التي يطرحها، وقد يستجلب هذا الأسلوب السخرية من شخص الخصم أو التقليل من شأنه ولكنّه عند البلاغيّين أخذ طابع الطرافة الممتعة من خلال مفاجأة السامع بغير ما يتوقّع.

2- مصطلح (التسليم):

التسليم لغة يعني الأخذ، وبذل الرضى بالحكم⁽²⁾، وهو يدخل في مفهوم (المذهب الكلامي)، ومعناه أن يفترض المتكلّم فرضاً محالاً إمّا منفيّاً أو مشروطاً بحروف الامتناع ليكون ما ذكره ممتنع الوقوع لامتناع وقوع مشروطة، ومع أنّ القضية مفترضة إلا أنّ المتكلّم يسلم بوقوعها تسليماً جدليّاً، ثمّ يدلّل على عدم الفائدة من وقوعها فيما لو وقعت، مثل قول الشاعر الطرماح⁽³⁾:

لو كان يخفى على الرحمن خافية** من خلقه خفيت عنه بنو أسدٍ

فقصد الشاعر أنّ الله لو كان ممن يجوز أن تخفى عليه خافية لخفيت عنه أخبار هذه القبيلة⁽⁴⁾، ونلاحظ في هذا الفنّ الأسلوب الكلاميّ في مجازة الافتراض أو الشبهة التي

¹ (ظ: التلخيص: 97، شروح التلخيص: 1/ 479، المطول: 79.

² (ظ: لسان العرب، مادّة (سلم): 1/ 2077.

³ (ظ: عيار الشعر: 45، الموشح: 244.

⁴ (ظ: المعجم المفصّل في علوم البلاغة: 315، 316.

تعرض في الكلام، ومن ثمّ تنفيذها من خلال الموافقة على وقوعها أولاً، ورفضها بعد ذلك، وهو أسلوب مألوف عند المتكلمين.

3- مصطلح (القول بالموجب):

وهو أن يُخاطب المتكلم فيبني عليه من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم، وذلك عين القول بالموجب؛ لأنّ حقيقته ردّ الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه ⁽¹⁾، فهو خروج على مقتضى الظاهر. والقول بالموجب يقع في المعاني وبذلك فهو يختلف عن (التعطف) الذي يقع في الألفاظ، مثال ذلك قول الشاعر ابن الحجاج ⁽²⁾:

قلت: ثقّلتُ إذ أتيتُ مراراً ** قال: ثقّلتُ كاهلي بالأيادي

قلت: طوّلتُ. قال لي: بل تطوّلتُ ** ت وأبرمتُ، قال: جبل ودادي

فقد عكس الشاعر معاني الألفاظ بين المتكلم والسامع لتصبح دالة على عكس معانيها الأصليّة، وفي هذا الفنّ نوع من التحسين للكلام.

4- مصطلح (الجاز):

وهو أحد المصطلحات التي نشأت في بيئة المتكلمين، إذ كان يرتبط ارتباطاً قوياً بمقررات دينيّة أدّت دورها في التمثيل لمعتقدات أصحابها ومذاهبهم، فالمعتزلة يبالغون في تنزيه القرآن عن الكذب ويرون أنّه نزل بلغة العرب فيجب أن يُفهم على أساس مقوّمات هذه اللغة، ومن هذه المقوّمات ما يصوّر على جهة الحقيقة، ومنها ما يصوّر على جهة الجاز، وعلى هذا الأساس اختلف العلماء في إثبات وقوع الجاز في الآيات القرآنيّة أو نفيه عنها.

¹ (ظ: تحرير التحرير: 599، بديع القرآن: 403.

² (ظ: بديع القرآن: 314.

ولم يكن مصطلح (المجاز) يعني في أوّل أمره ما هو قسيم الحقيقة وإنّما دلّ على ما تعبّر عنه الآية من معنى أو تفسير وهو ما نراه عند أوّل من تكلم بالمجاز وهو أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن)، واستعمله الجاحظ بالمفهوم نفسه الدالّ على أنّه طريقة من طرائق التعبير باللغة، ثمّ وصل هذا المفهوم إلى البلاغيّين الذين ربطوا بينه وبين العقل فدارت تعريفاتهم له على هدي من هذه الصلة، وتقديس لها، سواء ما كان مرتبطاً بالمجاز المرسل أم بالمجاز العقليّ، وقد فرّقوا بين المجازين بأنّ الأوّل خاصّ بالكلمة، والثاني خاصّ بالتركيب وهي تفرقة غير دقيقة⁽¹⁾، وفي القرن الرابع الهجريّ استقرّ المصطلح عند البلاغيّين بما استقرّ عليه أخيراً مثلما هو حال الكثير من المصطلحات البلاغيّة في هذه الفترة، حيث أصبح يدلّ على اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ، وهو قسمان: مجاز لغويّ، ومجاز عقليّ، فالجواز اللغويّ هو ما استفيد فهمه عن طريق اللغة وأهل اللسان، والمجاز العقليّ ما استفيد فهمه عن طريق العقل، وعلى وفق هذا التقسيم سار البلاغيّون فيما بعد.

5- مصطلح (المذهب الكلامي):

ومفهومه يدلّ على إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام، وذلك أن يكون بعد تسليم المقدمات مقدّمة مستلزمة للمطلوب، وهذا ما نبذه في كتاب الله تعالى، وكلام العرب الذي استشهد به البلاغيّون، وقد نسب البعض إلى التكلف⁽²⁾.

والمذهب الكلاميّ نوعان:

- جدليّ: وهو ما كان قائماً على إمارة ظنيّة لا تفيد إلا الرجحان، وهو كثير في كتاب الله.
- منطقيّ: وهو ما كانت حجّته برهاناً يقينيّ التأييد، قطعيّ الاستلزام، وقد نفاه بعض البلاغيّين عن القرآن⁽¹⁾.

¹ (ظ: المدخل إلى دراسة البلاغة العربيّة: 96-97).

² (ظ: البديع: 53).

وهذا الأسلوب من الاحتجاج على الخصم بالحجة والبرهان القاطع الذي يلجمه، ويقطع عناده، ويمنعه من أن يبيث دعاويه الزائفة هو أسلوب عرفه علماء الكلام وألفوه في مقارعة خصومهم ممن حاول أن يشوه الدين الإسلامي أو يتعرض لكتابه المقدس بشبهة، وبما أن البلاغة نشأت أصلاً لخدمة الدين والإسلام فقد اعتمد علماء الكلام على توظيف فنون البلاغة لخدمة هذه الحلقات والمجالس التي تنعقد بين الخصوم، فتسرّبت طبيعياً إلى مباحث البلاغة، لا بل حافظت على تسميتها التي تنسبها إلى علم الكلام، وقد أسماه بعضهم بـ(الاحتجاج النظري)⁽²⁾، وآخرون بـ(إلجام الخصم بالحجة)⁽³⁾.

جـ_ مصطلحات علم الأصول:

اهتمّ علماء أصول الفقه والفقهاء بالمباحث البلاغية التي وشّحو بها كتبهم أو ألفوا فيها، وعدّوها من طرق الفقه وأصوله، ودفعوا البلاغيين إلى وضع القواعد الواضحة والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم إليها في استنباط الأصول والأحكام⁽⁴⁾، فشاعت مصطلحاتهم في مباحث البلاغة التي استأثرت باهتمامهم، ومن أمثلة هذه المصطلحات:

1- مصطلحا (الإجمال) و(التفصيل):

استعمل هذان المصطلحان عند علماء الأصول في تعاملهم مع القرآن الكريم منيع الأحكام الشرعية في الدين الإسلامي، إذ اشتمل النصّ القرآني على أحكام وردت بشكل إجماليّ من دون تفصيل الجزئيات أو بيان الكيفيات الدالة عليها، فالتفصيل في الكلام قد يُخرج النصّ عن البلاغة،

¹ (ظ: د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 61 / 1.

² (ظ: البحر المحيط: 89 / 3، 305، 350 / 5، الفوائد: 136.

³ (ظ: البرهان في علوم القرآن: 286 / 3.

⁴ (ظ: د. أحمد مطلوب: البحث البلاغي عند العرب: 36، 37.

مثل أحكام الصلاة والزكاة والحجّ، وهذه الأحكام لم يتوصّل العلماء إلى تفصيلاتها إلا من خلال السنّة النبويّة.

انتقل هذان المصطلحان إلى مباحث البلاغة ليصبحان دالّين على مفهوم قريب جدّاً من الإيجاز والإطناب ولكن بصفات مميّزة لهما، فالإجمال أصبح يدلّ على التعبير عن فكرة أو موضوع ما بعبارات موجزة، مختصرة، يسيرة، بعيدة عن التفصيل لأجزاء الموضوع ومعاله وحدوده. أمّا (التفصيل) فهو صياغة الموضوع أو الفكرة بنحو تتبيّن من خلاله معالم الموضوع أو الفكرة بحيث تتضح أجزاؤه ومستوياته وحدوده بشكل مفصّل.

2- مصطلحا (الإطلاق) و(التقييد):

وهذان المصطلحان يتعلّقان أيضاً باستنباط الأحكام الشرعيّة من القرآن، فالإطلاق يعني أنّ الحكم الشرعيّ في قضية ما هو حكم مطلق عامّ لا يُستثني منه شيء، أمّا (التقييد) فيعني أنّ هذا الحكم مقيّد باستثناءات محدّدة في النصّ، هذا المفهوم الفقهيّ انتقل إلى مباحث علم البلاغة ليصبح الإطلاق متعلّقاً بالكلام وبالذات في الجملة، فإذا اقتصر في الجملة على ذكر المسند والمسند إليه يكون الحكم مطلقاً ويذهب السامع فيه كلّ مذهب ممكن، فإذا زيد في الكلام شيء على المسند والمسند إليه أو على أحدهما تعلّق غرض الكلام بتقييده بوجه مخصوص يحقق فائدة مرجوة فيه.

3- مصطلح (الخبر) و(الإسناد الخبري):

لم يتّفق القدماء على تعريف محدّد للخبر ولكنّ مفهومه استقرّ وأضح عند القزوينيّ بعد رحلة نموّ وتطور تدريجيّة، يقوم مفهوم الإسناد الخبريّ على فكرة ضمّ كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد أنّ مفهوم أحدهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفيّ عنها، ويتصل هذا المصطلح مع علم الأصول من حيث تعلّق الكذب أو الصدق في الخبر. فصدقه مطابقته للواقع، وكذبه عدمه، وقيل صدقه مطابقته للاعتقاد وكذبه عدمه، وقد أخرج العلماء القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة والمسلّمات الثابتة من هذا الحكم كي لا يتعرضوا للخرج عند تعاملهم

مع الأخبار الواردة فيه، وكان موقفهم من القرآن يقوم على أنه يشتمل على أمر ونهي وخبر، ومن ثمّ نظروا إلى مسألة الصدق والكذب من جهة ذلك فانتهدت عند المتأخرين إلى أنها قضية مرتبطة بمطابقة الخبر (الحكم) للواقع بغض النظر عن قائلها⁽¹⁾، فقضية الخبر هي التي ينطبق عليها الحكم بصدقها أو كذبها من دون القضايا الأخرى. وقد تكلم البلاغيون عن مباحث الخبر وأغراضه وأنواعه ولم يتكلموا عن الإنشاء لقلة أغراضه البلاغية، ولأنّ أنواعه من: القسم، وصيغ المدح والذم، والتعجب إنّما هي أخبار نقلت إلى معانٍ إنشائية⁽²⁾.

4- مصطلحا (العموم)، و(التخصيص):

ويقترّب مفهوم هذين المصطلحين من مصطلحيّ (الإطلاق) و(التقييد)، ولكنّ خصوصيّات كلّ مصطلح تختلف اختلافاً جريئاً، فالعموم عند علماء الأصول هو إثبات صورة من حكم يقتضيها الخطاب على عمومها، والتخصيص هو إخراج صورة من حكم كان يقتضيها الخطاب به لولا التخصيص، وهو شبيه بالنسخ من حيث اشتراكهما في اللبس، ومن حيث أنّ كلّ واحد منهما يقتضي اختصاص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ.

وفي البلاغة يتحقّق الإطلاق والتخصيص في الكلام من دون أن يتضمّن حكماً شرعياً وإنّما حكماً لغوياً، فالإطلاق هو لفظ وضع وضعاً واحداً لكثير غير محصور مستغرق جميع ما يصلح له، ويكون استعماله في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الإثبات⁽³⁾، والتخصيص هو كلّ لفظ وضع لمعنى معلوم على الانفراد، ويكون استعماله في حالة الإثبات أبلغ منه في حالة النفي⁽⁴⁾، وهو يتحقّق في تراكيب معيّنة، مثل: أسلوب الحصر بإثما، وأسلوب العطف، وأسلوب الاستثناء.

¹ (ظ: د. حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء: 28.

² (ظ: المصدر السابق: 100، 101.

³ (ظ: جوهر الكثر: 113.

⁴ (ظ: مصدر السابق نفسه.

د- مصطلحات علم العروض:

من المصطلحات التي تسرّبت إلى مباحث البلاغة مصطلحات تعلّقت بعلم العروض، وبما أنّ العروض هو علم يختصّ بمتابعة الأوزان في الشعر العربيّ، ويقيّم الصحيح من السقيم، والمعتلّ من السليم، فإنّ البلاغة تشابّحت معه في هذا الجانب ولكن ليس من خلال علاقتها بالأوزان وإنّما من خلال علاقتها بالصيغ الفنيّة عالية الفصاحة، ومع ذلك فإنّ هذه المصطلحات لم تدخل إلى مباحث البلاغة لهذا السبب، وإنّما لما اشتملت عليه البلاغة من فنون التحسين اللفظيّة والمعنويّة في علم البديع، هذا الأمر دفع الكثير من الشعراء إلى محاولة التفتّن في استعمال أساليب الشعر ومحاولة استنباط فنون جديدة غير مألوّفة عند سواهم، فكان أن استعملوا مصطلحات دلّت على ظواهر عروضيّة وحاولوا تطويرها بما يخدم هدفهم، وهو الأمر الذي دفع أصحاب المؤلّفات البديعيّة إلى استقراء هذه الظواهر ومحاولة جمع هذه الفنون في مؤلّفاتهم، ومن ضمن هذه المصطلحات:

1 - مصطلح (التأسيس):

الأسّ في اللغة هو مبتدأ الشيء، والأسس أصل البناء، ومصطلح (التأسيس) عند علماء العروض يعني: أن تلزم القافية بينها وبين حرف الرويّ حرف يجوز كسره ورفع ونصبه، نحو (مفاعِلن)، ويجوز إبدال هذا الحرف بغيره⁽¹⁾، وهو من عيوب الشعر.

هذا المصطلح أخذ بعداً آخر عند البلاغيّين ليُدلّ على معنى يبتعد عن هذا المعنى عند علماء العروض، ولكنّه يقترب من معناه اللغويّ، فهو عندهم: أن يبتدئ الشاعر بيت غيره ويبيّن عليه، فيكون بيت غيره أساساً يبيّن عليه شعره، مثال ذلك قول الأعشى⁽²⁾:

شَتَان ما يومي على كورها** ويوم حَيَان أخي جابرٍ

¹ (ظ: البحث العروضيّ والبلاغيّ في لسان العرب: 54/1).

² (ظ: ديوانه: 9).

فقد استعان الشاعر بما استشهد به عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في خطبته المعروفة بالشقشقية، وهو خلاف التضمن والإيداع، إذ أنّه لا يأخذ شطر البيت وإنّما يأخذ البيت برمته، ويوطئ له توطئة ملائمة لارتباط البيت المأخوذ بما قبله، حتّى أنّ السامع لا يرتاب به أصلاً، ولا يوهم الفكر الثاقب تمييزه عمّا قبله⁽¹⁾، فهو أمر يعود إلى كثرة المران على التعامل مع أساليب الشعر البليغ.

2 - مصطلح (التوشيح) و(الإرصاد) و(ذو القافيتين):

أصل هذه المصطلحات ظاهرة كانت معروفة عند الشعراء تتعلق بعلم العروض، وهي أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفين، فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر على عروض آخر، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح الذي يحيط الرقبة فسمي هذا الفنّ بالتوشيح، وسمي تشريعاً لأنّ الشاعر شرّع باباً في بيته إلى وزن آخر، ثمّ انتقل هذا المفهوم إلى النثر فجرى الأمر في الفقرتين من الكلام المنشور مثلما جرى الأمر في البيتين الشعريّين⁽²⁾.

هذا المفهوم الذي ألفه علماء العروض انتقل إلى علم البلاغة ليصبح أحد فنون البديع التي يُلجأ إليها للتفنّن في أساليب الكلام، فهو تعبير عن الكلام ولكن ليس بإيجاز وإنّما بإطالة الكلام بعبارة حسنة⁽³⁾.

¹ (ظ: المعجم المفصّل في علوم البلاغة: 272، 273).

² (ظ: المثل السائر: 2/ 359، معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: 14/3).

³ (ظ: البديع: 89).

3 - مصطلح (الحشو):

حشو البيت الشعريّ هو أجزاءه من غير عروضه وضربه¹ وهو مأخوذ من حشا بمعنى مأل. أمّا في اصطلاح البلاغيّين فهو أن يحشى البيت بلفظ لا يحتاج إليه لإقامة الوزن، مثل قول الفرزدق:

ستأتيك مّتي - إن بقيتُ - قصائدٌ ** يقصّر عن تحيرها كلُّ قائل

فقوله (إن بقيتُ) حشو في ظاهر لفظه، وقد أفاد به معنى زائداً ممّا لا فائدة به².

وقد ذهب بعض البلاغيّين إلى تقسيم (الحشو) على ثلاثة أقسام: إثنان منهما مذمومان، وواحد محمود، أحد المذمومين أن يدخل المتكلم في كلامه لفظاً لو سقط كان الكلام تاماً، والثاني أن تكون عبارة المتكلم طويلة بحيث تدلّ على معنى قليل، ويمكن أن يعبر عنها بلفظ أقصر³، في حين عدّه آخرون مذموماً مكروهاً في الكلام⁴.

4 - مصطلح (المعاظلة):

المعاظلة عند علماء العروض هو العظال في القوافي أي التضمين، يقال: فلان لا يعاظم بين القوافي، وعاطل الشاعر في القافية عظاماً أي ضمّن⁵.

وقد اختلف العلماء في تفسير المعاظلة فهي في الأصل مداخللة الشيء في الشيء، ففسّرها قدامة بن جعفر بمداخللة بعض الكلام فيما يشبهه من وجهه، أو فيما كان من جنسه، وهذا ليس بمنكر بحدّ ذاته ولكن المنكر - عنده - أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه، وما هو غير

¹ (ظ: البحث العروضي والبلاغيّ في لسان العرب: 1/ 64.

² (ظ: المعجم المفصّل في علوم البلاغة: 541، 542.

³ (ظ: كتاب الصناعتين: 54.

⁴ (ظ: أسرار البلاغة: 19.

⁵ (ظ: البحث العروضي والبلاغيّ في لسان العرب: 1/ 93.

لائق به ⁽¹⁾، فالمعاظلة من وجهة نظره فيها نوع فاحش، وهو ما لم يعرف له مجاز يرجع إليه في تحديد أصله، وكان منافراً للعادة، بعيداً عما يستعمل الناس مثله، ومنها ما هو غير فاحش وهو ما كان له مجاز، أي أن يكون له في الأصل تشبيه يرجع إليه، وهذا التقسيم خطأه عليه البلاغيون فيما بعد فهي عندهم من عيوب اللفظ، وليس فيها ما يُنسب إلى الفحش، ومن أصحاب هذا الرأي: الأمدّي، والعسكري، وابن سنان الخفاجي، وابن الأثير ⁽²⁾. فالمفهوم الأصلي الذي ورد عند علماء العروض انتقل إلى مباحث البلاغة ليصبح معناه عندهم: أن يدخل المتكلم في كلامه ما ليس من جنسه، وما هو غير لائق به، فأصبح دالاً على الفحش لا محالة.

ه- مصطلحات علم النحو:

تعتمد البلاغة في قسم كبير من مصطلحاتها على مصطلحات نحوية، والناظر إلى علم المعاني بمصطلحاته ومفاهيمه من: (تعريف) و(تنكير)، و(ذكر) و(حذف)، و(تقديم) و(تأخير)، و(إظهار) و(إضمار) وغيرها يتوثق من هذا القول فهو في مجمله يقوم على أسس نحوية، إذ نشأ وترعرع في أحضان هذا العلم، وكانت دراسته تتناول أسباب جواز التقديم وأقسامه، ووجوبه، وجواز الحذف وامتناعه ووجوبه، وأنواع التعريف، وأحكام التنكير، أما البلاغيون فدرسوا هذه المباحث على أساس وقوعها مطلباً بيانياً يقتضيه المقام ويدعو إليه الحال ⁽³⁾، فالخوار الذي دار عليه هذا العلم هو وحدة الصورة للجملة العربية بعد أن استقرّ تطوّر اللغة العربية بمجملها، وهي الصورة نفسها التي دار عليها الدرس البلاغي فيما بعد، فالنحوي لم يكن يعنيه من اختيار جملة على أخرى وإثارة عليها إلا المركّب الذي يطوّع استعماله لكلّ متكلم به مهما كان حظه من الفكر ونصيبه من الثقافة، أما البلاغيّ فإنّه ينظر إلى اللغة نظرة أرفع وأرقى من أن تكون وسيلة

¹ ظ: نقد الشعر: 201.

² ظ: سرّ الفصاحة: 151.

³ ظ: د. محمد محمد أبو موسى: خصائص التراكم، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: 111.

لتوصيل الفكرة أو التعبير عن القصد، فهي عنده القدرة على التعبير الذي يعتمد على حسن اختيار الكلمات ذات الأثر البالغ⁽¹⁾.

و- مصطلحات علم النقد:

بين البلاغة والنقد وشائج تعاون وتكامل في ميدان الأدب والتذوق والنقد، إذ لا يقوم أحدهما بدون الآخر؛ لأنّ البلاغة ليست إلا الصورة النهائية لذوق الأمة في ناحية من نواحي أدائها الأدبي، وهي وليدة النقد وثمرته الناضجة، فالنقد يبدأ انطباعاً ذوقياً وملاحظة تأثرية عابرة، تتسع مع الزمن لتصبح قيمة جمالية ثابتة، تنضمّ إلى غيرها لتشكّل اتجاهاً نقدياً، فإذا استمرّ وجود هذه القيمة الجمالية وتداولتها الأجيال خلدت في تراث الأمة الفني، وجسّدت في مصطلح وحيز يسهل نقله إلى الأجيال الصاعدة⁽²⁾.

ومع كمّ الملاحظات النقدية المتناثرة في بطون الكتب فقد اجتمعت هذه الملاحظات فيما بينها على مجموعة من القضايا التي تشكّل الشغل الشاغل للنقاد في بحثهم عن جودة النصّ الأدبي، ومن جملة هذه القضايا قضية اللفظ والمعنى التي شكّلت قطب الرحى للكثير من القضايا الفنية فيما بعد، والتي قدحت إشارتها في أحضان العلوم الدينية⁽³⁾ ولكنها نمت وترعرت في أحضان النقد العربي، ولفعالياتها في ردد هذا المضمار فقد نشأت المصطلحات التي أشارت إليها القضية إلى علم النقد مجازاً لأنّ توظيف القضية والإفادة منها استثمر في ميادين هذا العلم عند تعامله مع النصوص النثرية والشعرية؛ وبما أنّ البلاغة ترتبط مع النقد بروابط وشيجة فقد أفادت من اللحاحات النقدية التي صدرت عن الشعراء والعلماء والنقاد. ((فالقدماء من علمائنا - مع اعترافهم بأنّ اللفظ والمعنى متلازمان - بحثوا في كلّ منهما على حده، وحدّدوا أوصافاً للمعنى، وبيّنوا العيوب التي

¹ (ظ: المدخل إلى دراسة البلاغة العربية: 107.

² (ظ: د. محمد علي سلطاني: مع البلاغة العربية في تأريخها: 203.

³ (ينظر في طبيعة هذه النشأة: د. علي محمد حسن العماري: قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية: 10.

تلتحق كلاً منهما على حده أيضاً، وجعلوا لكلّ منهما مجالاً خاصاً في ميدان النقد والبلاغة⁽¹⁾، وقد أفرزت قضية التأثير والتأثير بين العلوم مجموعة من المصطلحات التي استقرت في ميدان علم النقد وأفادت منها البلاغة، ومن هذه المصطلحات:

1 - مصطلح (الأسلوب):

الأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب عند علماء اللغة⁽²⁾، وقد تنبّه القدماء من النقاد إلى هذا المفهوم واستعملوه في حكمهم على صناعة الشعر، فوقفوا عند أساليب الشعراء العرب في التعبير عن أغراضهم؛ وألزموهم السير على هذا النهج من الوقوف على الطلل أو وصف الرحلة، أو الدخول في الغرض الأساس للقصيدة، وحكموا على من يخالف هذه الطريقة في التعبير عن القصيدة العربية بأنه خارج عن المألوف، وأن صاحبه من الشعراء ليس من الشعر بشيء⁽³⁾،

أما عند علماء البلاغة فالأسلوب هو الضرب من النظم، والطريقة فيه⁽⁴⁾، وهو لا يتعلق بترتيب الألفاظ فقط وإنما بترتيب الألفاظ مع المعاني التي قد تكون حسية أو عقلية، فالنظم هو توخّي معاني النحو في الكلام مثلما يقول عبد القاهر الجرجاني، وعلى وفق هذا المفهوم فالأسلوب والنظم هما نوع من المعنى⁽⁵⁾.

لقد تفتّن البلاغيون في الحديث عن أشكال الأسلوب وفنونه ومما عرضوا له مصطلح (الصورة) إذ تواضع القدماء على أن يقولوا اللفظ وهم يعنون (الصورة) التي تحدث في المعنى، فهي

¹ (المصدر السابق: 26.

² (ظ: لسان العرب، مادة (سلب): 1/ 2057.

³ (ظ: العمدة: 1/ 137 .

⁴ (ظ: دلائل الإعجاز: 36.

⁵ (ظ: قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية: 43.

نتاج التخيّر والتدبّر في معاني النحو، والمعنى قد ينتقل من صورة إلى صورة وتكون إحداها أجود من الأخرى أو يكون كلاهما جيدين⁽¹⁾.

2- مصطلحات: (الجزالة) و(السهولة) و(الرقّة):

((الجزالة بمعنى التمام، والامتلاء، والشعراء يصفون الشعر بالجزالة إذا كانت ألفاظه قويّة محكمة))⁽²⁾، وهي صفة تجتمع مع (السهولة) التي تعني خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسّف في السبك، فتتميّز على ما سواها عند من له أدق ذوق من أهل الأدب⁽³⁾.

أمّا (الرقّة) فتترادف عند القدماء السلاسة، إذ يقصدون بالشعر السلس الشعر الطيّع، المتدفق الطبع، ومنه (السهل الممتنع) وهو الشعر الذي قد يبدو يسيراً سهلاً لسامعه فإذا ما حاول غير ذي طبع أن يقول مثله وجده صعباً عسيراً⁽⁴⁾.

وقد تفتّن النقاد في بيان مواقع استعمال مفاهيم هذه المصطلحات، فالجزل يستعمل في وصف مواقع الحرب، وفي قوارع التهديد والتخويف؛ لما فيه من قوّة اللفظ وشدة الصوت، والشعر الرقيق يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف؛ لما فيه من اللين واللطافة⁽⁵⁾، وفي الغالب فإنّ وصف الجزالة يتعلّق باللفظ، مع ميل البعض إلى جعله وصفاً للمعاني⁽⁶⁾.

¹ (ظ: دلائل الإعجاز: 371، 372، 374، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية: 43).

² (حدائق السحر في حقائق الشعر: 193).

³ (ظ: خزانة الأدب: 454، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 3/ 49).

⁴ (ظ: حدائق السحر: 193).

⁵ (ظ: المثل السائر: 1/ 168).

⁶ (ذهب إلى هذا الرأي المزدوقي (ظ: مقدّمة شرح الحماسة: 7).

3- مصطلحا (الطبع) و (الصنعة):

يدلّ مصطلح (الطبع) على السجّية التي طُبِعَ عليها الإنسان، ومصطلح (الصنعة) يدلّ على الحرفة أو العمل، وهما من المصطلحات النقدية البلاغية التي رافقت عملية الإبداع الشعريّ عند القدماء، وتعود نشأة هذين المصطلحين إلى مرحلة النقد الذوقيّ التي تعتمد ثقافة الناقد وبيئته من دون تحديد له بمقياس خاصّ يحدها، ومن خلال هذين المصطلحين كان يتمّ الحكم على شاعريّة الشاعر ومدى جدّة شعره في الوقت نفسه، وبمرور الوقت أصبح مصطلحا (الطبع) و(الصنعة) معياراً يُلجأ إليه للحكم على جودة النصّ الأدبيّ وشاعريّة صاحبه، وذلك من خلال الترفي في مدلول المصطلحين الفطري ليصبحان مرتبطين بالعلم والمعرفة التي تصقل هذا الاستعداد الفطريّ وتنميه وخاصّة على يد ابن سنان الخفاجيّ وابن الأثير⁽¹⁾، والقرطاجني الذي حسم الأمر فقال: ((الشعر صناعة ألّتها الطبع))⁽²⁾، وهو الأمر الذي جعل النقاد يركّزون في مقاييسهم النقدية على اعتماد درجة معرفة الشاعر وثقافته، فوصفوا الشاعر بالخنديد والفحل والمفلّق، وقصدوا من الشاعر الفحل الراوية للشعر، والخنديد الراوية لشعره وشعر غيره، والمفلّق الذي لا رواية له⁽³⁾. وقد حافظ المصطلحان على معنييهما في مباحث علم البلاغة.

4- مصطلح (الغرابية)، و(ترك الحوشي):

لا يكاد يتفق أصحاب النقد على معنى واحد يؤدّيه هذا المصطلح، فتارة يطلقونه دالاً على المعنى الذي لم يسبق إليه على جهة الاستحسان، إذا كان عديم المثال أو قليله، فهو قليل الدوران على الألسنة، أو أن يكون معناه الكلمة الوحشية الاستعمال التي لا يظهر معناها إلا بالرجوع إلى كتب اللغة المبسوطة، وهم في كلا الحالتين يريدون بها ما كان يبعد

¹ (ظ: سرّ الفصاحة: 83، 84، المثل السائر: 38 / 1.

² (منهاج البلغاء: 199.

³ (ظ: العمدة: 122 / 1.

الدلالة عن المستوى العام الذي يُقاس به الإنتاج الأدبي⁽¹⁾، واستقرّ مفهومه عند البلاغيين بأن يأتي المتكلم بمعنى غريب نادر لم يسمع بمثله، أو سمعه ولكنه قليل الاستعمال في السنة المتكلمين، وأطلق عليه البعض مصطلح (النوادر)⁽²⁾.

هذه مجموعة مهمة من المصطلحات النقدية التي شاعت في مباحث البلاغة، إلى جانب هذه المصطلحات فإنّ البلاغة تمثّل فنّ القول، وبما أنّ النقد في مراحل نشأته الأولى كان ذوقياً انطباعياً فقد اعتمد الناقد على حاسة السمع في إصدار أحكامه فما وافق السمع واستحسنه الذائقة فهو مقبول وإلا ينتقد صاحبه بالقصور والنقص، ومن مصطلحات النقد التي اعتمدت السمع وأفادت منها البلاغة:

- مصطلح (الرشاقة): ويعني حلاوة الألفاظ وعذوبتها⁽³⁾.

- مصطلح (الجهامة): ويعني الكلمات القبيحة في السمع⁽⁴⁾.

- مصطلح (القران)، و(التشابه)، و(الموافقة): وهو شدّة التلاحم بين ألفاظ البيت الواحد فكأنّ الألفاظ شدّت بعضها إلى بعض، وهو من أجود الشعر لأنّه يُتخيّل وكأنّه قد أفرغ إفراغاً لشدّة سبكه، وهو يجري على اللسان في يسر وسهولة.

¹ (ظ: الإيضاح: 73، التلخيص: 25، شروح التلخيص: 1/ 83، المطول: 18، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية: 128).

² (ظ: نقد الشعر: 170، البديع في نقد الشعر: 132، تحرير التحبير: 506، بديع القرآن: 293، جوهر الكثر: 227، خزنة الأدب: 223، أنوار الربيع: 5/ 338).

³ (ظ: البديع في نقد الشعر: 161).

⁴ (ظ: البديع في نقد الشعر: 161، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 3/ 22).

- مصطلح (التنافر): وهو من رديء الشعر إذ تقع ألفاظه غير متلائمة مع بعضها، فتكون مستكرهة لثقلها على النطق وكراهتها في أسماع المتذوقين للشعر لأنها تُحدث عندهم مؤونة في إنشاد الشعر.

وغير هذه المصطلحات كثير ولكننا اكتفينا بهذا القدر للتوضيح.

- ثالثاً: النشأة الخاصة:

ويختصّ هذا البعد بالبحث عن المصطلحات التي نشأت في أحضان علم البلاغة ونمت وترعرت فيه، وقد حاز قصب السبق في هذا البعد مصطلحات علم البديع لما بذله البلاغيون من استحداث فنونها انطلاقاً من أهداف العلم ذاته، وإنّ لم يخلُ علم المعاني أو علم البيان من المصطلحات التي اختصت بعلم البلاغة ولكنّها قليلة قياساً إلى ما سبق.

أ- مصطلحات علم المعاني:

أغلب مفردات هذا العلم نشأت في أحضان علم النحو ولكن مع ذلك فقد وُلدت مجموعة من المصطلحات مرتبطة بعلم البلاغة، ونشأت بين أحضانه، ومن هذه المصطلحات:

1- مصطلح (الإشارة):

الإشارة هي الإيماء، يقال أشار إليه بيده أي أومأ إليه، وأشارت إليه بيدي لَوَّحت إليه¹، وعرف قدامة بن جعفر الإشارة في حديثه عن ائتلاف اللفظ والمعنى، قائلاً: هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء أو لمحة تدلّ عليها.

¹ (ظ: لسان العرب، مادة (شور): 1/ 2356.

((والإشارة من غرائب الشعر وملاحمه، وبلاغته عجيبة تدلّ على بعد المرمى وفرط القدرة وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كلّ نوع من الكلام لحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملًا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه))⁽¹⁾.

وعلى هذا المعنى فهي نوع من أنواع الإيجاز لأنّها تدلّ على المعنى الكثير باللفظ القليل، وقد عدّ ابن سنان الخفاجي من أنواع الإشارة: التفخيم، والإيماء، والتعريض، والتلويح، والكناية، والتمثيل والرمز⁽²⁾، فأشتمل المصطلح على فنون تتعلّق بعلم البيان والبديع من باب عدم استقرار المصطلح البلاغيّ في عصره.

2- مصطلح (الإيغال):

الإيغال من وغل في الشيء وغولاً: دخل فيه وتوارى، ووغل: ذهب وأبعد⁽³⁾ أمّا اصطلاحاً فهو ختم الكلام نثراً كان أو نظماً بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها، فكأنّ المتكلم أو الشاعر قد تجاوز حدّ المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ مراده فيه إلى زيادة عن الحدّ⁽⁴⁾

3- مصطلح (التميم):

وهو مأخوذ من تمّ الشيء تمّاً، وتمام الشيء وتتمعه: ما تمّ به⁽⁵⁾، عرفه قدامة بن جعفر بقوله: ((اعتراض كلام في كلام لم يتمّ معناه، ثم يعود المتكلم فيتمّه))⁽⁶⁾، وقد أسماه الخاتميّ (حلية المحاضرة). وقد صاغه ابن أبي الإصبع بقوله: التميم عبارة عن الإتيان في النظم والنثر

¹ (العمدة: 1/ 303.

² (ظ: سرّ الفصاحة: 221.

³ (ظ: لسان العرب، مادة (وغل): 1/ 4879.

⁴ (ظ: المعجم المفصل في علوم البلاغة: 249.

⁵ (ظ: لسان العرب، مادة (تمم): 1/ 447.

⁶ (نقد الشعر: 46 .

بكلمة إذا طُرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه⁽¹⁾، وهو نوعان: ضرب في المعاني، وضرب في الألفاظ، فالذي في المعاني هو تتميم المعنى ويأتي للمبالغة والاحتياط، والذي في الألفاظ هو تتميم الوزن، وهو الذي لو طُرحت كلمة منه انتقل معنى البيت لسواها، وهي نوعان: كلمة لا يفيد مجيئها إلا إقامة الوزن فقط، وأخرى تفيد مع الوزن ضرباً من المحاسن، فالأولى من العيوب، والثانية من النعوت⁽²⁾. ومن أمثلة التتميم قول طرفة بن العبد⁽³⁾:

فسقى ديارك غير مفسدها ** صوب الغمام وديمة تمني

فقوله (غير مفسدها) تتميم، ويجيء التتميم في المقاطع والحشو، وأكثر مجيئه في الحشو. وقول كثير عزة:

تثنى له الأعداء حتى إذا أتوا ** بمرضاته طوعاً وكرهاً تجنباً

فقوله (طوعاً وكرهاً) تتميم.

ب- مصطلحات علم البيان:

وتمثل المصطلحات الرئيسة فيه: (التشبيه)، و(الاستعارة)، و(الكناية)، وإن كانت الملاحظات الأولى لدلالة هذه المصطلحات لا تتعدى المفهوم اللغوي ولكنها ارتبطت في كل أحوالها بمفهوم الصورة البيانية، إذ كانت مدلولاتها تستعمل في معان قريبة من معانيها التي استقرت عليها في البحث البلاغي فيما بعد⁽⁴⁾.

¹ (ظ: تحرير التحرير: 1/ 127 ، بديع القرآن: 73 .

² (ظ: المعجم المفصل في علوم البلاغة: 285.

³ (ظ: شرح المعلقات: 198.

⁴ (ظ: د.علي عشري زايد: البلاغة العربية، تاريخها ومصادرها: 38، د. أحمد جمال العمري: المباحث

البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني: 77.

1- مصطلح (التشبيه):

مع تعدّد مصطلحات علم البيان فإنّ البلاغيّين يرجعون أساليب هذا العلم كلّها في اللسان العربيّ إلى (التشبيه) يقول الباقلانيّ: التشبيه تُعرف به البلاغة ⁽¹⁾ ويقول السكاكينيّ: ((وهو الذي إذا مهّرت فيه ملكت زمام التدرّب في فنون السحر البيانيّ)) ⁽²⁾ فعلم البيان قائم في أساسه على التشبيه.

أمّا سرّ الإعجاز في التشبيه فيتحقّق عندما يستوفي شروطه البيانيّة البلاغيّة، ((وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس، وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً، وتجد للملاءمة والتأليف السويّ بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً)) ⁽³⁾، فالجمع بين المختلفين في الجنس هو سرّ البلاغة العربيّة بأكملها، وهو جوهر فكرة علم البيان، فالنظم إمّا أن يقوم على تشبيه أو استعارة أو كناية وهم في الأصل تشبيه ⁽⁴⁾.

2- مصطلح (الكناية):

وهو مصدر كُنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به، واصطلاحاً هو لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصليّ. واستعمل المصطلح في أوّل أمره مقابلاً للتصريح، ومقترناً بالتعريض، ثم انقسم فيما بعد إلى قسمين، إذ التحقّت الكناية بالبيان، وانضوى التعريض تحت علم البديع.

والكناية مصطلح قديم استعمل عند القدماء بمعناه العامّ وهو التعبير عن المعنى من خلال التلميح لا التصريح، ولكنّهم مع ذلك التفتوا إلى ما تؤدّيه بعض صوره من فائدة في الكلام،

¹ (ظ: إعجاز القرآن: 175.

² (مفتاح العلوم: 439.

³ (أسرار البلاغة: 131.

⁴ (ظ: التراث والحداثة: 153.

فقالوا: فلان مقتصد كناية عن البخل، وفلان كثير الرماد كناية عن الكرم، وفلان عريض القفا كناية عن البلاهة، وطويل النجاد كناية عن الشجاعة، وهكذا⁽¹⁾.

3- مصطلح (الاستعارة):

وهي مأخوذة من العارية لغة، واستعار طلب العارية أي نقلها من شخص إلى آخر حتى تصبح من خصائص المعار منه. وهي عند البلاغيين تعني نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول، وكييفيتها أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به مع سد التشبيه ونصب القرينة، ولهذا سميت استعارة، والهدف من استعمال الاستعارة بدلاً من الحقيقة هو المبالغة في التشبيه حتى يصبح طرفاه كأنهما شيئاً واحداً. والاستعارة عند أكثر البلاغيين مجاز لغوي، وإن كان بعضهم قد تردد في عدّها مجازاً لغوياً تارة، ومجازاً عقلياً تارة أخرى، مثل: عبد القاهر الجرجاني والرازي⁽²⁾.

ج- مصطلحات علم البديع:

الإبداع هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، وهي سمة الشاعر المبتكر، والكاتب المقتدر، وقد لزمته تسمية (البديع) حتى قيل له (بديع) وإن كثر وتكرّر، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ فإذا تمّ للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق⁽³⁾.. وبما أن علم البديع يهدف إلى التحسين والإبداع، وكلمة البديع تدور حول الجديد المخترع لا على مثال سابق، إذ هو ((علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))⁽⁴⁾ فقد استلهم الشعراء الكثير من الفنون

¹ (ظ: خزانة الأدب: 421، مع البلاغة العربية في تأريخها: 57، 58.

² (ظ: دلائل الإعجاز: 66 ، أسرار البلاغة: 398 ، نهاية الإيجاز: 115، 117، 118.

³ (ظ: العمدة: 1/ 263.

⁴ (الإيضاح: 477، وينظر: التلخيص: 347 .

الأدبية التي تحقّق هذا المهدف، فابتكروا وبحثوا عن كلّ ما من شأنه أن يوصل إليه، وقد استلهم أصحاب البديع هذا المهدف فبدلوا جهوداً مكثّفة في ابتكار الفنون واستحداثها، وضمتوها كتبهم، ومن أمثلة المصطلحات التي ابتكرها علماء البديع:

1- مصطلح (تجاهل العارف):

وهو أحد المحسنات المعنوية التي ذكرها ابن المعتز في بديعه، وفكرته قائمة على مزج الشكّ باليقين وذلك من خلال إخراج ما يُعرف صحّته مخرج الشكّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً⁽¹⁾، وقد اسماه بعض البلاغيين بـ(التشكيك)، وآخرون بـ(سوق المعلوم مساق غيره)⁽²⁾.

وتتعدّد الفائدة التي يحقّقها هذا الفنّ من: التوبيخ في مثل قوله تعالى: ﴿أَصْلَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾⁽³⁾، و التعريض في مثل قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾، أو في الذمّ في مثل قول زهير⁽⁵⁾:

وما أدري وسوف أخال أدري ** أقوم آل حصن أم نساء

وغير هذه الأغراض كثير من أمثلة: المبالغة في المدح، أو الذمّ، أو التحقير، والذي يستوجبها هو مقام الكلام الذي يرد فيه هذا الفنّ.

¹ (ظ: كتاب الصناعتين: 396.

² (ظ: العمدة: 2/ 66، مفتاح العلوم: 202.

³ (هود/ 87.

⁴ (المائدة/ 116.

⁵ (ظ: ديوانه: 33.

2- مصطلح (الترصيع):

وهو محسن لفظي مأخوذ من ترصيع اللفظ، وهو أن يكون في أحد جانبي العقد من الآلي مثل ما في الجانب الآخر، وهو من نعوت الوزن عند قدامة، وقد عرفه بقوله: ((هو أن يتوحي في تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف))⁽¹⁾.

ويقوم هذا الفن على مقابلة كل لفظة في الكلام بلفظة على وزنها ورويها، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ⁽²⁾، أما في الشعر فيجعل الشاعر الجمل في البيت الشعري مسجوعة، وقد أطلقوا تسمية هذا المصطلح تشبيهاً له بترصيع الجواهر في الحلبي⁽³⁾، مثل قول الخنساء في أخيها صخر⁽⁴⁾:

حامي الحقيقة، محمود الخليفة، مهد ** ي الطريقة، نفاع وضرار

جواب قاصية، جزار ناصية ** عقاد ألوية، للخيال جرار

ويسمى هذا الفن أيضاً بـ(المضارعة)، وقد أدخله القزويني في السجع⁽⁵⁾.

3- مصطلح (التصريع):

وقد أدخله البلاغيون ضمن المحسنات اللفظية، وهو في الشعر بمثالة السجع في الفصلين من الكلام المنشور، وغالباً ما يكون في مطالع القصائد، حيث يناسب آخر الشطر الأول من البيت قافيته، ولكن الشعراء يصرعون أحياناً داخل القصيدة⁽¹⁾، مثل قول امرئ القيس⁽²⁾:

¹ (نقد الشعر: 38.

² (الانفطار / 13، 14.

³ (ظ: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 2 / 134، 135.

⁴ (ظ: شرح ديوان الخنساء: 234.

⁵ (ظ: الإيضاح: 395، التلخيص: 400.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد جاء من أبيات القصيدة قوله:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل * وإن كنت قد أزمعت صرمني فأجملي

وفائدة التصريح في الكلام أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة نعلم قافيتها، ونلاحظ أنّ هذه الفائدة لا تؤثر على المعنى فالهدف هو التحسين في كَيْفِيَّة التعبير عن الكلام بشكل أساس.

- إشكاليات المصطلح البلاغي:

لقد أفرزت نشأة البلاغة بأبعادها الثلاث: العامة، والمختلطة، والخاصة مشاكل عانت منها المصطلحات البلاغية بعد استقرار تكوّنها، هذه المشاكل تحدّدت في وجهين:

- الوجه الأول: الاختلاف في تسمية مصطلحات دالة على مفهوم واحد.
- الوجه الثاني: الاتفاق في تسمية مصطلحات دالة على مفاهيم مختلفة.

وسنعرض لهذين الوجهين مع الاستدلال عليهما بنماذج من المصطلحات لبيان حجم المشكلة ومحاولة إيجاد الحلول لها.

- الوجه الأول: الاختلاف في تسمية مصطلحات دالة على مفهوم واحد:

تبدو هذه المشكلة واضحة للعيان في معاجم المصطلحات الخاصة بالبلاغة، إذ تتعدّد الألفاظ الدالة على مفهوم واحد من منطلق توافق العلماء ضمن فترة زمنية معينة على تسمية محدّدة، ثمّ تتغيّر هذه التسمية بمرور الزمن مع بقاء المفهوم؛ وذلك من خلال حدوث التوافق على لفظ جديد هو الأقرب إلى المفهوم وهكذا. وربما لهذا السبب نُسب الخلط والتداخل والغموض إلى

¹ (ظ: معجم المصطلحات البلاغية و تطوّرها: 244 / 2.

² (ظ: ديوانه: 16.

المصطلحات البلاغية بسبب تعدّد مسمياتها من جهة، ومفاهيمها من جهة أخرى ولو استعرضنا التأريخ الزمني الذي ظهرت فيه هذه المصطلحات مع تحديد البيئة الثقافية التي نمت وترعرعت بين أحضانها لعرفنا أنّ المصطلحات البلاغة ما عانت من هذه النقطة إطلاقاً؛ ولهذا السبب فقد تعدّدت الترادفات- تجوّزاً- بين تسميات المصطلحات في أن تكون ثنائية، أو ثلاثية، أو رباعية، أو خماسية، أو سداسية، والمفاهيم واحدة، وكأنّها قد أخذت أصول الأفعال في اللغة العربية بنظر الاعتبار في هذا التعدّد، ولو تتبّعنا المصطلحات البلاغية لوجدنا أنّ هذه الظاهرة مستشرية، وهي أحد الأسباب الموصلة إلى كثرة المصطلحات وتعدّدها، وسنستعرض مجموعة من المصطلحات لبيان هذه الظاهرة.

1- مصطلح (المتابعة) و(الترتيب):

المصطلح الأصلي المستعمل عند البلاغيين هو (المتابعة)، ومفهومه أن يأتي المتكلم في الكلام المنثور والشعر المنظوم بالمعاني المتتالية التي لا يجوز تقديم بعضها على بعض⁽¹⁾، وحمل مصطلح (الترتيب) المفهوم نفسه إلا أن التسمية كانت من ابتداعات شرف الدين التيفاشي⁽²⁾.

2- مصطلح (براعة المطلع) و(حسن الابتداء) و(براعة الاستهلال): تسمية (حسن الابتداء) أطلقها ابن المعتز وأراد بها ابتداءات القصائد، وقد فرّع المتأخرون من هذه التسمية (براعة الاستهلال)، وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيئة أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده، والكاتب أشدّ ضرورة إلى ذلك من غيره ليبين كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أوّل وهلة، وعُلم بما مقصده⁽³⁾.

¹ (ظ: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 3/ 187.

² (ظ: خزائن الأدب: 367، أنوار الربيع: 5/ 317.

³ (ظ: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 1/ 392، 393.

واختار البلاغيون فيما بعد ما يتناسب وتوجهاتهم، فعلى تسمية ابن المعتز (حسن الابتداء) اعتمد الحلبي والنويري، أما تسمية (براعة الاستهلال) فسار عليها الحموي والمدني⁽¹⁾، وقد حاول بعض البلاغيين التفرقة بين (حسن الابتداء) و(براعة الاستهلال)⁽²⁾ وحاولوا إيجاد ملامح فاصلة بينهما.

3- مصطلح (الاستتباع) و(المضاعف) و(التعليق) و(الموجه):

ومفهوم هذه المصطلحات جملة: الإتيان في النظم أو الشعر بوجه يستتبع وجهاً آخر على سبيل المدح أو الذم، أما تسمية المصطلحات فقد اختلف البلاغيون فيما بينهم عليها، فأبو هلال العسكري أسماء (المضاعفة)، وابن منقذ أسماء (التعليق)، وتبعه المصري، وابن مالك والعلوي، والرازي أسماء (الموجه) وقصره على الشعر فقط، و تبعه الحلبي والنويري وابن قيم الجوزية، وأسماء السكاكي (الاستتباع)، وتبعه القزويني، والسبكي والتفتازاني⁽³⁾. ونبه المدني إلى هذا الاختلاف في تسمية المصطلح فقال: ((هذا النوع سماء العسكري المضاعف، وابن أبي الإصبع ومن بعده التعليق، ولم يغير أحد منهم من الشواهد، وهو عبارة عن الوصف بشيء يستتبع وصفاً آخر من جنس الوصف الأول مدحاً كان أو ذماً أو غير ذلك))⁽⁴⁾.

¹ (ظ: البديع: 75، حسن التوسل: 250، نهاية الأرب: 7/ 133، خزنة الأدب: 8، أنوار الربيع: 1/ 53.

² (ظ: تحرير التحرير: 171، 172 .

³ (ظ: كتاب الصناعتين: 441، البديع في: 58، تحرير التحرير: 443، بديع القرآن: 234، المصباح: 258، الطراز: 3/ 159، نهاية الإيجاز: 148، حسن التوسل: 319، نهاية الأرب: 7/ 181، الفوائد المشوق: 165، مفتاح العلوم: 539، الإيضاح: 526، التلخيص: 384، عروس الأفراح: 4/ 396، المطول: 81.

⁴ (أنوار الربيع: 6/ 148.

4-مصطلح (لزوم ما لا يلزم) و(الإعنات) و(التضييق) و(التشديد):

المراد من هذه المصطلحات أن يضيق اللفظ عن المعنى لكون المعنى أكثر من اللفظ⁽¹⁾، وقد شاع استعمال مصطلح (لزوم ما لا يلزم) عند البلاغيين أكثر من سواه للدلالة على هذا المفهوم، إلا أنّ باقي المصطلحات استعملت عند البعض منهم ولكنها لم تستحصل درجة الشيوع المرجوة، فابن المعتز يطلق تسمية (الإعنات) المراد منه التكلف، ومثله الحلبي والنويري، وابن مالك أطلق تسمية (الالتزام)، ومثله المصري، وابن منقذ والسيوطي أسمياه (التضييق) والمراد منه (التشديد)⁽²⁾.

5-مصطلح (المبالغة) و(الإفراط في الصفة) و(الغلو) و(الإغراق):

تدلّ هذه المصطلحات بمجملها على الإسراف وتجاوز الحدّ، وقد اختلف العلماء في تسمية المصطلح الدالّ على هذا المفهوم، فابن المعتز أطلق تسمية (الإفراط في الصفة) وعدّه من محاسن الكلام ومثله المصري، في حين أطلق ابن الزملاكي تسمية (الإفراط) فقط، وأطلق الطواط ومن ثمّ الرازي تسمية (الإغراق في الصفة)، وأدخل قدامة المفهوم في باب المبالغة، أمّا ابن رشيق فقد اسماه الغلوّ والإغراق، والعسكريّ أطلق تسمية (الغلوّ) فقط ومثله القرطاجي⁽³⁾.

وهذه التسميات انحصرت جميعاً عند المتأخرين تحت مفهوم (المبالغة) ولا سيّما عند القزويني الذي قدّم المبالغة إلى: التبليغ، والإغراق، والغلو⁽⁴⁾، وتابعه البلاغيون على هذا التقسيم فيما بعد.

¹ (ظ: البديع في: 155.

² (ظ: البديع: 74، الطراز: 2 / 398، حسن التوسل: 220، نهاية الأرب: 7 / 113، المصباح: 201،

بديع القرآن: 299، البديع في: 155، السيوطي: شرح عقود الجمان: 154.

³ (ظ: البديع: 65، تحرير التحرير: 147، بديع القرآن: 85، البرهان الكاشف: 310، حقائق السحر:

175، نهاية الإيجاز: 149، نقد الشعر: 160، ابن رشيق: العمدة: 2 / 12، كتاب الصناعتين: 369،

منهاج البلغاء: 76.

⁴ (ظ: الإيضاح: 514، التلخيص: 371.

6-مصطلح(مراعاة النظر)و(التوفيق)و(التوافق)و(التناسب)و(التآلف)و(المؤاحاة):

هذه المصطلحات بمجموعها تعني جمع الشيء إلى ما يناسبه من نوعه، أو ما يلائمه من أحد الوجوه⁽¹⁾، والخلاف الذي وقع بين البلاغيين لم يقع في مفهوم هذه المصطلحات جملة إذ كانت دلالتها عامة في بادئ الأمر أي من دون تحديد لمعلّقتها، ثم وقع الخلاف فيما بعد - عند المتأخرين- في مدى تعلّقها باللفظ أو بالمعنى، أو في إدخالها لها ضمن تقسيمات النظم أو ضمن المحسنات البديعية، فابن أبي الإصبع المصري - مثلاً- قسم (المناسبة) إلى: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، والمناسبة في الألفاظ قسمها إلى: تامّة، وغير تامّة، والتامّة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفأة⁽²⁾، تابعه في هذا التقسيم: الحلبي، والنويري، وابن الأثير الحلبي والحموي، لا بل اعتمدوا على بعض شواهد⁽³⁾. ومن حيث تعلّقها بعلوم البلاغة فالرازي أدخلها في (أقسام النظم) من حيث تعلّق التحسين الواقع فيها باللفظ، في حين أدخلها السكاكي والقزويني في المحسنات المعنوية⁽⁴⁾.

أمّا الاختلاف في تسمية المصطلح فيعود إلى اختلاف العلماء في إطلاق التسمية التي يرونها مناسبة أكثر من سواها، فمصطلح (الائتلاف) أطلقه قدامة بن جعفر، ومصطلح (التوافق) ذكره أبو زيد القرشي وأراد منه موافقة اللفظ للفظ ولكن بلغة أخرى، فهو لا يدخل ضمن الفنون البلاغية ولكنّه يتشابه مع المفهوم الذي استقرّ عند البلاغيين؛ لذا استعمله بعضهم للتعبير عنه، ومصطلح (المؤاحاة) أطلقه ابن فيمّ الجوزيّة⁽⁵⁾، والمصطلح الشائع عند البلاغيين هو (مراعاة النظر).

¹ (ظ: خزنة الأدب: 131، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 3/ 174.

² (ظ: تحرير التحرير: 363 ، بديع القرآن: 204 .

³ (ظ: حسن التوسل: 288، نهاية الارب: 7/ 158، جوهر الكثر: 241، خزنة الأدب: 116.

⁴ (ظ: نهاية الإيجاز: 148 ، مفتاح العلوم: 534 ، الإيضاح: 488، التلخيص: 354 .

⁵ (ظ: نقد الشعر: 15، جبهة أشعار العرب: 10، الفوائد المشوق: 47.

وقد تنبّه البلاغيون القدماء إلى هذا الاختلاف في تسمية المصطلح فقال ابن معصوم المدني: ((هذا النوع - أعني مراعاة النظر - سَمَاهُ قوم بالتوفيق، وآخرون بالتناسب، وجماعة بالائتلاف، وبعضهم بالمؤاخاة. قالوا: هو أن يجمع المتكلم بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى، أو لفظاً للفظ، أو معنًى لمعنى، إذ القصد جمع شيء مع ما يناسبه من نوعه، أو ملائمة أحد الوجهين⁽¹⁾، فالخلاف لم يقع إطلاقاً في المفهوم وإنما في التسمية.

- الوجه الثاني: الاتفاق في تسمية مصطلحات دالة على مفاهيم مختلفة:

على العكس من الظاهرة السابقة نجد أن هناك مصطلحات بلاغية متوافقة متشابهة في تسميتها ولكنها تدلّ على مفاهيم مختلفة، وأكثر ما تصدر هذه المشكلة عن سمة النقل العشوائي الذي قد يصدر من بعض المؤلفين ممن يحاولون جمع الظواهر البلاغية، لا تحديدها أو تحليلها، فيكون النقل محدداً بالمسميات مرتبطة بمفاهيمها التي وردت عليها في مؤلفات سابقة أو معاصرة من دون النظر إلى البيئة الثقافية التي حدّدت المصطلح في ضوء الكتاب الذي وردت فيه، أو في ضوء توجه صاحبه المذهبي، فيرد المصطلح مرتبطاً بأكثر من مفهوم في الكتاب نفسه، أو في كتب متفرقة، وسنستعرض مجموعة من المصطلحات التي شكّلت هذه أركان هذه الظاهرة، منها:

1- مصطلح (التدبيح):

وهو في معناه اللغوي مشتق من التدبّح وهو ثوب سُداه ولحمته من الابريسم، أمّا معناه البلاغيّ فهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألواناً يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون، أو لبيان فائدة الوصف بها⁽²⁾، وهو من مبتدعات ابن أبي الإصبع المصري، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ

¹ (ظ: أنوار الربيع: 5/ 132.

² (ظ: تحرير التحبير: 532، بديع القرآن: 316.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ⁽¹⁾، فالمراد من ذكر الألوان الكناية عن الطريق المشتبه والواضح، وتابعه على رأيه هذا: ابن مالك، والحلي، والنويري، وابن الأثير الحلي، والعلوي، والحموي، والسيوطي، والمدني⁽²⁾. والتدريج له معنى آخر عند البلاغيين فقد عدّه ابن سنان الخفاجي من الطباق وأسماء (المخالف)، إذ قال: ((فأما المخالف فهو الذي يقرب من التضاد))⁽³⁾، من ذلك قول الشاعر أبو تمام⁽⁴⁾:

تردّي ثياب الموت حمراً فما أتى ** لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فالحمر والخضر من المخالف، وتابعه القزويني فتحدّث عنه في الطباق⁽⁵⁾.

2- مصطلح (الترديد):

هو تعليق الشاعر لفظة في البيت بمعنى، ثم يردّها فيه بعينها متعلّقة بلفظة أخرى في البيت نفسه⁽⁶⁾، مثل قول زهير⁽⁷⁾:

من يلق يوماً على عاتقه هرمًا ** يلق السماحة منه والندی خُلُقًا

فعلّق الشاعر كلمة (يلق) بـ(هرم)، ومن ثمّ علّقها بـ(السماحة).

والترديد عند ابن رشيق نوع من الجانسة وإن حمل المفهوم نفسه⁽¹⁾.

¹ (فاطر/27.

² (ظ: المصباح: 89، حسن التوسّل: 319، نهاية الأرب: 7/180، جوهر الکت: 228، الطراز: 3/78، خزنة الأدب: 441، معترك الأقران: 1/395.

³ (سرّ الفصاحة: 196.

⁴ (ظ: ديوانه: 36.

⁵ (ظ: الإيضاح: 2/482، التلخيص: 350.

⁶ (ظ: حلية المحاضرة: 1/154.

⁷ (ظ: ديوانه: 53.

3- مصطلح (الطابق) أو (المطابقة):

المطابقة عند البلاغيين تعني الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، وقد تكون بين اسمين، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَازًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾⁽²⁾، أو بين فعلين، مثل قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾⁽³⁾، أو بين حرفين: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾⁽⁴⁾. وقد أطلق ثعلب تسمية (المطابق) على ما وقع من الجناس الحقيقي أي الذي يتطابق فيه اللفظان، فقال في تعريفه له: ((هو تكرّر اللفظة بمعنيين مختلفين))⁽⁵⁾، وتابعه قدامة بن جعفر في تسميته هذه اعتماداً على مفهومه للجناس نفسه، وقسم هذا الفن الذي عدّه من نعوت جودة ائتلاف اللفظ والمعنى إلى: المطابق والجناس، ومعناها أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة. وقد أوهم هذا الخلاف في المصطلح بعض العلماء إلى توسيع دائرة الحكم على وقوع الخلاف في المصطلح ليجعله شاملاً المفهوم أيضاً⁽⁶⁾.

4 - مصطلح (الجناس) ، و(التجنيس):

مدلول المصطلح عند البلاغيين هو أن تحيى الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها أن تشبهها في تأليف حروفها، أو أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما . والمصطلح دلّ عند قدامة بن جعفر على نوع من أنواع المطابقة، فقال عنه: ((وهو أن تأتي بالكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها، واتفاق حروفها، ويكون معناهما مختلفاً))⁽⁷⁾.

¹ (ظ: العمدة: 1/ 334.

² (الكهف/18.

³ (آل عمران/26.

⁴ (البقرة/ 286.

⁵ (قواعد الشعر: 56.

⁶ (ذهب إلى هذا الرأي الحاتمي (ظ: حلية المحاضرة: 1/ 142).

⁷ (نقد الشعر: 162.

5- مصطلح (المجاورة):

هذا المصطلح من ابتداعات أبي هلال العسكري، ومعناه ((تردد لفظتين في البيت، ووقوع كل واحدة منهما بجانب الأخرى، أو المجاورة قريباً منها، من غير أن تكون أحدهما لغواً لا يحتاج إليها))⁽¹⁾، كقول علقمة⁽²⁾:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ** أتى توجّه والمحروم محروم

فقوله: الغنم يوم الغنم، والمحروم محروم كلاهما مجاورة. وهذا المصطلح عند ابن الأثير يدلّ على الكناية، إذ يقول عنه: أن يريد المؤلف ذكر شيء فيترك ذكره جانباً إلى ما جاوره، فيقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المقصود⁽³⁾، مثل قول عنتره⁽⁴⁾:

وشككت بالرمح الأصمّ ثيابه ** ليس الكريم على القنا بمحرّم

فأراد بالثياب ما تشتمل عليه من الروح، لأنّه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به فأراد ما تشتمل عليه الثياب.

6- مصطلح (المشاكلة):

وهو أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا، فالمشاكلة التحقيقية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾⁽⁵⁾، أمّا التقديرية فمثل

¹ (كتاب الصناعتين: 431.

² (ظ: البدیع في نقد الشعر: 57.

³ (ظ: المثل السائر: 378.

⁴ (ظ: شرح المعلقات: 101.

⁵ (البقرة/ 194.

قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾⁽¹⁾، وعلى وفق هذا المفهوم سار أغلب البلاغيين مثل: السكاكي، والقزويني، وابن مالك، وشرّاح التلخيص⁽²⁾. ومصطلح (المشاكلة) عند التبريزي يأخذ دلالة أخرى، إذ يدلّ على الجناس، ((والمشاكلة أن يجمع الشاعر في البيت كلمتين متجاورتين، شكلهما واحد، ومعناها مختلف))⁽³⁾، مثل قول أبي سعيد المخزومي⁽⁴⁾:

حَدَقَ الآجَالُ آجَالُ * * * وَهَوَى لِلْحُرِّ قِتَالُ

7- مصطلح (المناسبة):

المناسبة في الكلام معنوية ولفظية، أمّا المعنوية فتعني أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثمّ يتمّ كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، واللفظية هي توخّي الإتيان بكلمات مترنات، وهي على ضربين: تامة وغير تامة، فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة، وغير تامة غير مقفاة، فالتقفية غير لازمة للمناسبة⁽⁵⁾، وهو المفهوم الذي شاع عند البلاغيين من أمثلة: الحلبي، والنويري، وابن الأثير الحلبي، والحموي⁽⁶⁾. ولهذا المصطلح دلالة أخرى عند البلاغيين، فهو عند الرمائي نوع من أنواع الجناس، إذ يقول في تعريف مصطلح (المناسبة): ((وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل

¹ (البقرة/ 138.

² (ظ: مفاتيح العلوم: 533، 534، الإيضاح: 477، التلخيص: 356، المصباح: 213، شروح

التلخيص: 309 / 4.

³ (الوافي في العروض والقوافي: 296.

⁴ (ظ: خزانة الأدب: 306، أنوار الربيع: 679.

⁵ (ظ: تحرير التحرير: 363، بدیع القرآن: 204.

⁶ (ظ: حسن التوسل: 288، نهاية الارب: 7 / 158، جوهر الكثر: 241، خزانة الأدب: 116.

واحد))⁽¹⁾. وعند السيوطي يأخذ المصطلح بعداً آخر إذ يدلّ على الترابط الواقع بين الآيات القرآنية⁽²⁾.

ونظرة سريعة إلى هذه المصطلحات تبين حجم المشكلة التي عرضت للمصطلح البلاغيّ عبر مراحل نشأته وتكوينه وصولاً إلى مرحلة الكمال والاستقرار ولا سيما في الدراسات الحديثة للتراث البلاغيّ، وتبين أننا بحاجة إلى دراسة نقدية تنظر إلى هذه المراحل نظرة جادة وعميقة في الوقت نفسه، وتُظهر حاجتنا إلى وضع معجم بلاغيّ يدرس المصطلحات البلاغية في ضوء أصول نشأتها لا أن نكتفي بالعرض التاريخي الذي لا يكشف في كلّ الأحوال عن رحلة المصطلح عبر مراحل تطوّره في داخل علوم العربية وصولاً إلى علم البلاغة.

وبعد فتلّك أهمّ الملامح العامة للمصطلح البلاغيّ وهي ملامح لا تكاد تستقرّ في أية مرحلة من مراحل نموّ الدرس البلاغيّ الذي يعتمد اللغة في دراسته في جميع ميادينها، وهي في حقيقة الأمر مجموعة من العلوم المتداخلة التي يرفد بعضها بعضاً وصولاً إلى التكامل.

* مصادر البحث ومراجعته:

- الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: عبد الرحمن فهمي الزواوي، دار الغدير الجديد، 1427هـ، 2006م.
- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ط1، مطبعة المدني (القاهرة، جدة)، 1412هـ، 1991م.
- إعجاز القرآن: محمد بن الطيّب الباقلاني، تح: السيّد أحمد صقر، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1954.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: علي صدر الدين بن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، النجف الأشرف، 1388هـ، 1968م.

¹ (النكت في إعجاز القرآن: 99.

² (ظ: الإتيان: 3/ 261.

-
- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، تح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989م.
- البحث البلاغي عند العرب: د. أحمد مطلوب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1982م.
- البحث العروضي والبلاغي في لسان العرب: د. عامر مهدي صالح.
- البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ، تح: د. أحمد أحمد بدوي، و د. حامد عبد المجيد، القاهرة، 1380هـ، 1960م.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: عبد الواحد بن عبد الكريم الزملاكي، تح: د. أحمد مطلوب، و د. خديجة الحديشي، بغداد، 1394هـ.
- البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن: ابن أبي الإصبع المصري، تح: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديشي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1426هـ، 2006م.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1427هـ، 2006م.
- البرهان في وجوه البيان: اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديشي، ط1، 1387هـ، 1967م.
- البلاغة العربية، تاريخها ومصادرها: د. علي عشري زايد، مكتبة الشباب، مصر، 1979م.
- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ، 1998م.
- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع المصري، تح: د. حفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1383هـ، 1963م.
- التراث والحداثة، دراسات ومناقشات: د. محمد عابد الجابري، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م.
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني، القاهرة، 1357هـ، 1938م.
- التلخيص في علوم العربية: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تح: عبد الرحمن البرقوقي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1940م.
- جمالية الخبر والإنشاء، دراسة جمالية بلاغية نقدية: د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
- جبهة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، بيروت، 1383هـ، 1963م.
-

-
- جوهري الكثر: نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تح: الدكتور محمد زغلول سلام، مصر.
- حدائق السحر في دقائق الشعر: رشيد الدين محمد العمري، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، 1364هـ، 1945م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي، تح: الدكتور أكرم عثمان يوسف، بغداد، 1400هـ، 1980م.
- حلية المخاضرة في صناعة الشعر: محمد بن الحسن بن مظفر الحاقني، تح: د. جعفر الكتاني، بغداد، 1979م.
- خزنة الأدب وغاية الأرب: أبو بكر علي بن حجة الحموي، القاهرة، 1304هـ.
- خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1430هـ، 1996م.
- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1424هـ، 2004م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
- ديوان الأعشى، دار صادر، بيروت، 1380هـ، 1960م.
- ديوان امرئ القيس: تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة، 1964م.
- سرّ الفصاحة: عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، 1389هـ، 1969م.
- شرح ديوان الخنساء: أبو العباس ثعلب، تقديم وشرح: د. فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1429هـ، 2008م.
- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان: جلال الدين السيوطي، القاهرة، 1358هـ، 1939م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي، مطبعة المقتطف، 1322هـ، 1914م.
- الظاهرة الدلالية، عند علماء العربية القديمة حتى نهاية القرن الرابع الهجري: د. صلاح الدين ززال، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: الحسن بن رشيق القيرواني، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، 2001م.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيم الجوزية، القاهرة، 1327هـ.
-

-
- قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية (إلى عهد السكاكي 555-626): د. علي محمد حسن العمري، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1420هـ-1999م.
- قواعد الشعر: أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، 1367هـ، 1948م.
- كتاب البديع: عبد الله بن المعتز، اعتنى بنشره اغناطيوس كراتشكوفسكي، لازاك، لندن، 1935م.
- كتاب الصناعتين: الشعر والنثر: الحسن بن عبد الله العسكري، تح: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1371هـ، 1952م.
- لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري: د. أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1410هـ، 1990م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، القاهرة، 1358هـ، 1939م.
- المدخل إلى دراسة البلاغة العربية: د. السيد أحمد خليل، دار النهضة العربية، بيروت، 1968م.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع: بدر الدين بن مالك الدمشقي، تح: د. عبد الحميد هندواي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، 2001م.
- المطول، شرح تلخيص المفتاح: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تح: أحمد عزو عناية، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1425هـ، 2004م.
- مع البلاغة العربية في تأريخها: د. محمد علي سلطاني، (القسم الأول)، دار المأمون للتراث، دمشق، 1978م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مطبعة انجمن العلمي العراقي: ج1: 1403هـ، 1983م، ج2: 1406هـ، 1986م، ج3: 1407هـ، 1987م.
- المعجم المفصل في علوم البلاغة: البديع والبيان والمعاني: د. أنعام فؤال عكاوي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ، 1996م.
- مفاتيح العلوم: محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، تح: ج. فان فالوتين، بريل، 1895م.
- مفتاح العلوم: يوسف بن محمد بن علي السكاكي، تح: د. عبد الحميد هندواي، ط1، دار الكتب العلمية، 1420هـ، 2000م.
- المنطق: محمد رضا المظفر، تح: السيد علي الحسيني، ط2، مطبعة نهضت، إيران، 1425هـ.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني، تح: د. محمد بن الحبيب بن خوجة، تونس، 1966م.
-

- نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النكت في إعجاز القرآن: علي بن عيسى الرمائي، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، و د. محمد زغلول سلام، ط5، دار المعارف، القاهرة، 2008م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدين الرازي، تح: د. إبراهيم السامرائي، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1985م.
- الوافي في العروض و القوافي: الخطيب التبريزي، تح: د. فخر الدين قباوة، وعمر يحيى، ط2، دمشق، 1395هـ، 1975م.

البحوث والمقالات:

- قضايا المصطلح البلاغي، كثرته، وتعدده، واشتراكه، وصياغته: محمد بن علي الصامل، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج18، ع 30، جمادى الآخرة، 1425هـ.
- المصطلح التراثي في الدرس اللساني الحديث: عبد الحليم بن عيسى، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، ع5، ماي 2005.



